حياته
معاركه
أقواله
نيلسون مانديلا
في مواجهة التمييز العنصري
ماتيو جروسون

نيلسون مانديلا

نيلسون مانديلا
في مواجهة التمييز العنصري

الكاتب: ماتيو جروسون

تصميم الغلاف: أوليفييه باليز
الرسوم الداخلية: سيفرين كورديبيه
ترجمة: محمد فؤاد



128 شارع النيل – الدقي 12311 – الجيزة – مصر
تليفون: 37627147 (202 +)
فاكس: 37627146 (202 +)
e-mail: dar@al-balsam.com
www.al-balsam.com

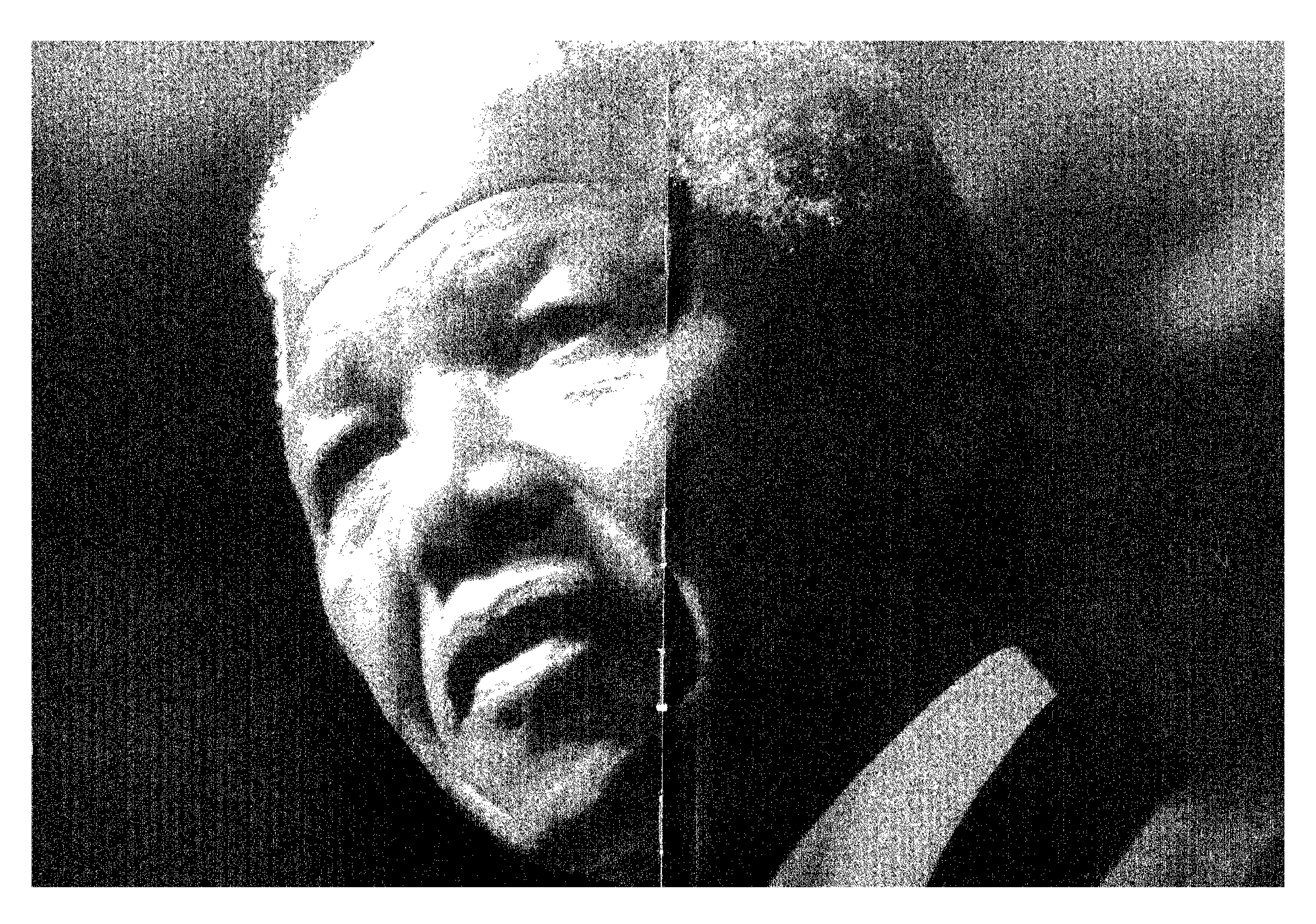
رقم الإيداع المحلي: 2010/20783
I.S.B.N.: 977 - 6171 - 24 - 9 :الترقيم الدولي

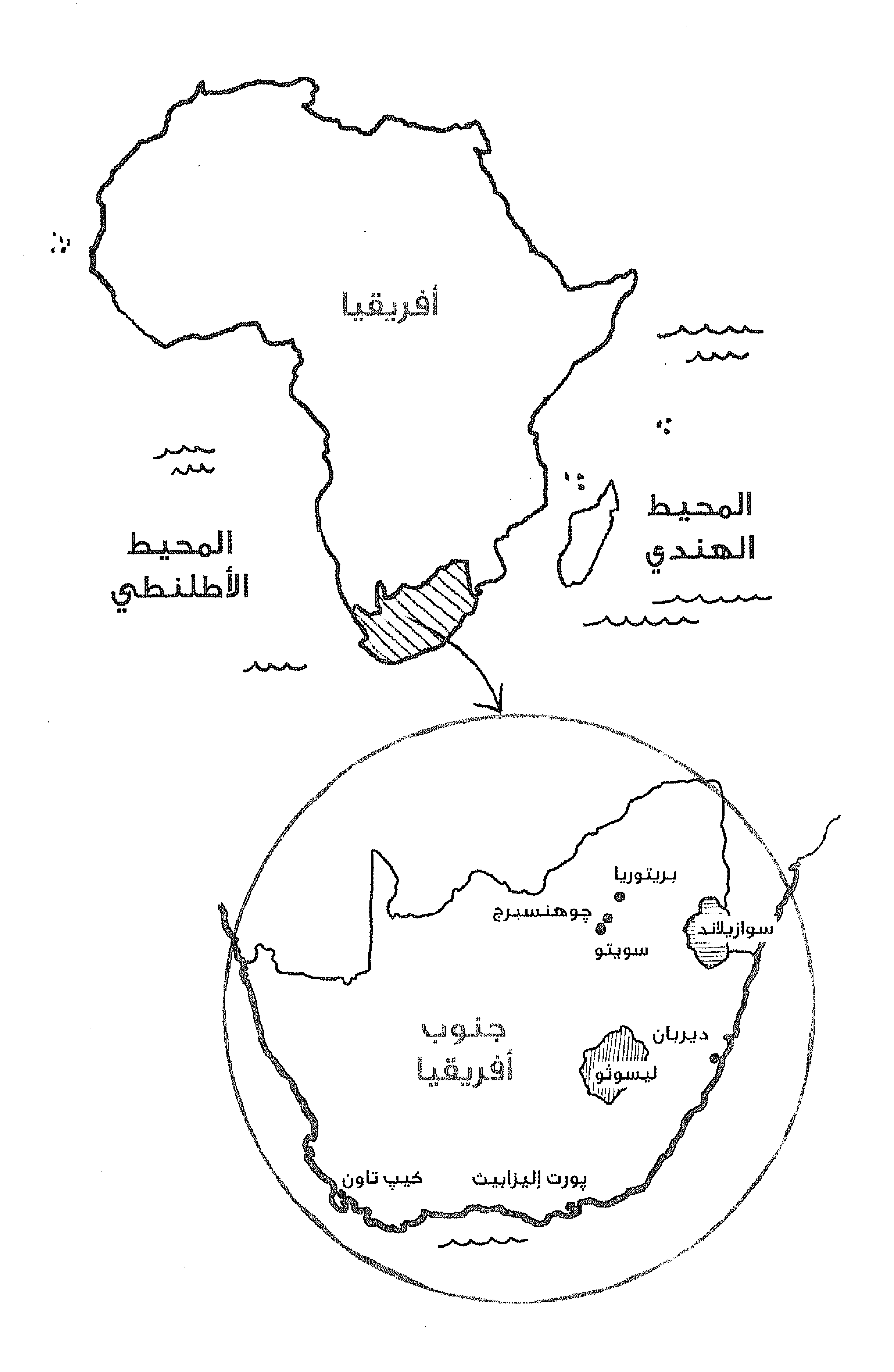
الطبعة الأولى باللغة العربية 2011

نيلسون مانديلا

للكاتب: ماتيو جروسون
تصميم الغلاف: أوليفييه باليز
الرسوم الداخلية: سيفرين كوردييه

ترجمة: محمد فؤاد



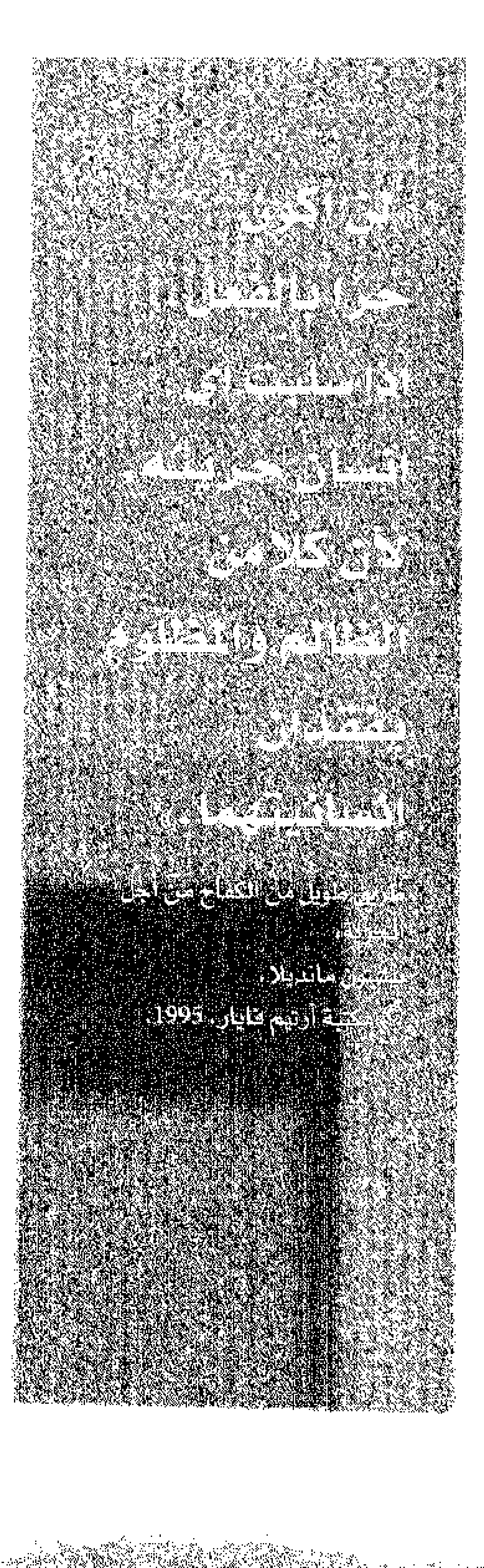

أفريقيا
المحيط
الأطلنطي
المحيط
الهندي
بريتوريا
چوهنسبرج
سويتو
سوازيلاند
جنوب
أفريقيا
ديربان
ليسوثو
كيپ تاون
پورت إليزابيث

المقدمة

عندما خرج نيلسون مانديلا من السجن في الحادي عشر من فبراير عام 1990، كان قد أمضى سبعة وعشرين عامًا من حياته وراء القضبان بدون أن يرى أحد وجهه وذلك تنفيذًا للحكم الذي أصدره النظام العنصري الحاكم آنذاك في جنوب أفريقيا، أملًا في أن ينسى الناس مانديلا. ولم يفلح هذا الحكم في تحقيق أهدافه العنصرية؛ لأن نيلسون مانديلا، مع مُضيّ السنين، تحول من مناضل سياسي إلى رمز عالمي للنضال من أجل الحرية. وخلال الأعوام التي قضاها في السجن، لم يتراجع مانديلا عن أيٍّ من أفكاره الداعية إلى حصول السود على نفس حقوق البِيض في جنوب أفريقيا. فمن ناحية تسلح مانديلا بكاريزما ساحرة وعزيمة لا تُقهر، ومن ناحية أخرى تحلى بإيمان قوي بأن الحلول الفعالة لن تكون سوى بالحوار، مع الأخذ في الاعتبار مصالح جميع الأطراف المعنية. ويا له من طريق كفاح طويل قضاه مانديلا منذ أن كان يأمل وهو في المدرسة أن يصبح «إنجليزي أسود» إلى أن وصل إلى منصب رئيس الدولة في حكومة جنوب أفريقيا الديمقراطية! وفي عام 1999، تنازل المناضل العجوز عن منصبه إلى خليفته تابو مبيكي. ولكنه ما إن تقاعد حتى استمر في تكريس جهوده لمكافحة العديد من الأسباب الأخرى للظلم في شتى أرجاء العالم.

ماتيو جروسون

المحتويات


لن أكون
حرا بالفعل إذا
إذا سلبت أي
إنسان حريته
لأن كلا من
الظالم والمظلوم
يفتقدان
إنسانيتهما».
طريق طويل من الكفاح من أجل
الحرية،
نيلسون مانديلا،
مكتبة أرتيم فايار، 1995.




عام 1941: نيلسون مانديلا يبلغ من العمر 23 عامًا. ويقرر هو وابن عمه أن يتركا إقليم ترانسكاي حيث ترعرعا ليذهبا إلى جوهانسبرج على بُعْد 800 كيلومتر.
لا أريد أن أتزوج الفتاة التي اختارها لي رئيس القبيلة!
لا مستقبل لنا إذا واصلنا العيش في هذه القرية.
جوهانسبرج
هناك سوف نستطيع أن نحقق أحلامنا!
مانديلا يقيم في حي مخصص لسكن السود –«تاونشيب».
هنا، يقيم السود في أكواخ من الصفيح...
وبفضل صديق، تم توظيف مانديلا في مكتب للمحامين البِيض.
هنا، لون البشرة لا يشكل فرقًا!
وحدث ذات مرة في استراحة الشاي، أن صدرت من السكرتيرة ملاحظة أوضحت له بأن العنصرية قائمة في هذا المكان أيضًا.
ستشرب الشاي في فنجان مختلف عن الفناجين الخاصة بنا.
مانديلا يدرس القانون...
أريد أن أصبح محاميًا كي أدافع عن حقوق السود.
وفي المساء، كان مانديلا يشارك في اجتماعات سياسية.
إن المؤتمر الوطني الأفريقي «ANC» هو مجموعة تؤيد النضال السلمي.

بداية من عام 1948، قامت الحكومة البيضاء الجديدة بالتصويت على قانون ينزع جميع الحريات من السود. هذا هو التمييز العنصري.

إن جنوب أفريقيا مِلْكٌ لنا.

منع السود من التحرك بدون تصريح*.

(*جواز سفر)

ليس لدينا حتى الحق في أن نُحب!

أريد أن أصبح طبيبًا.

هذا مستحيل!

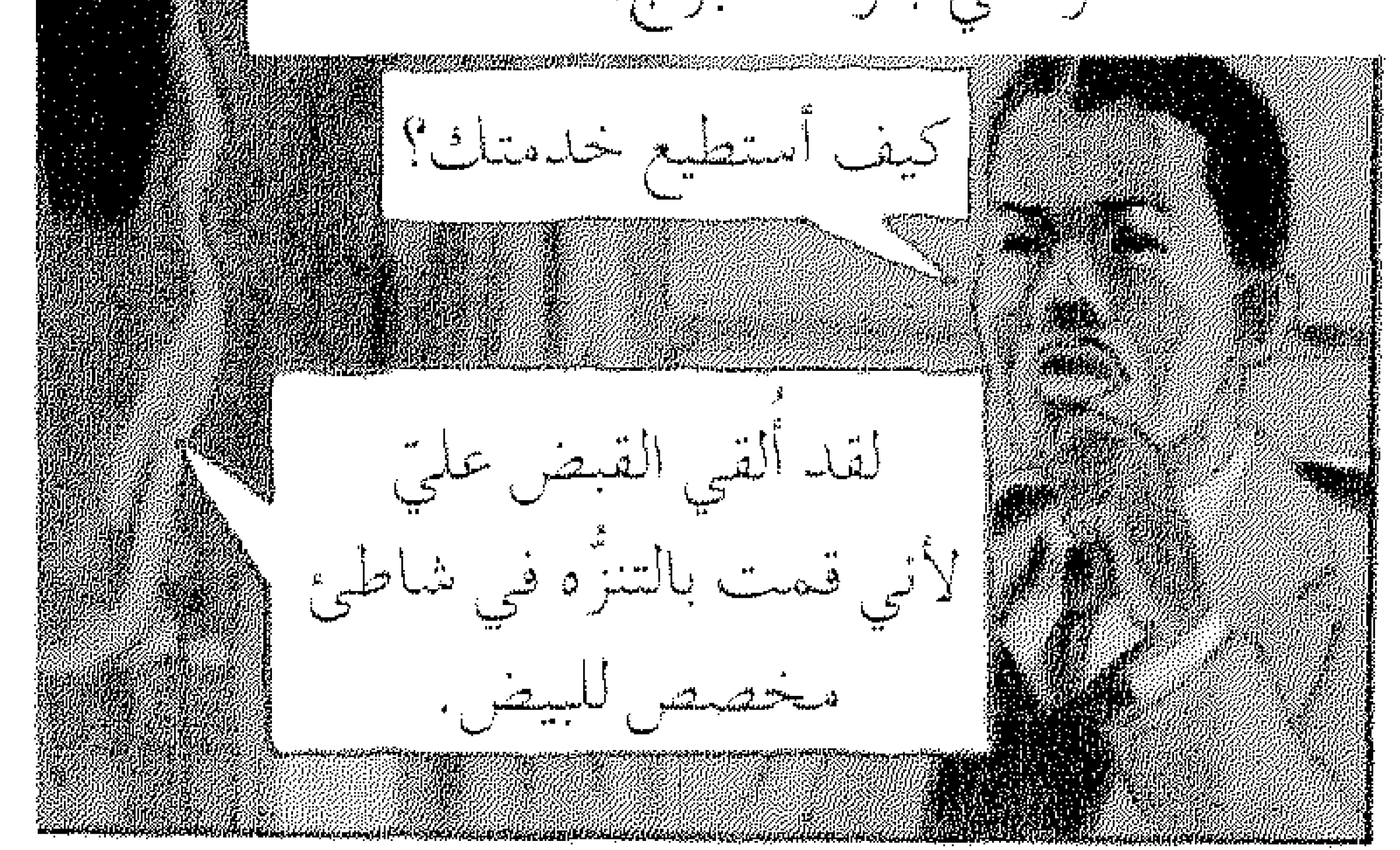
حظر الزواج بين البيض والسود.

السود لا يملكون الحق في اختيار مهنتهم.

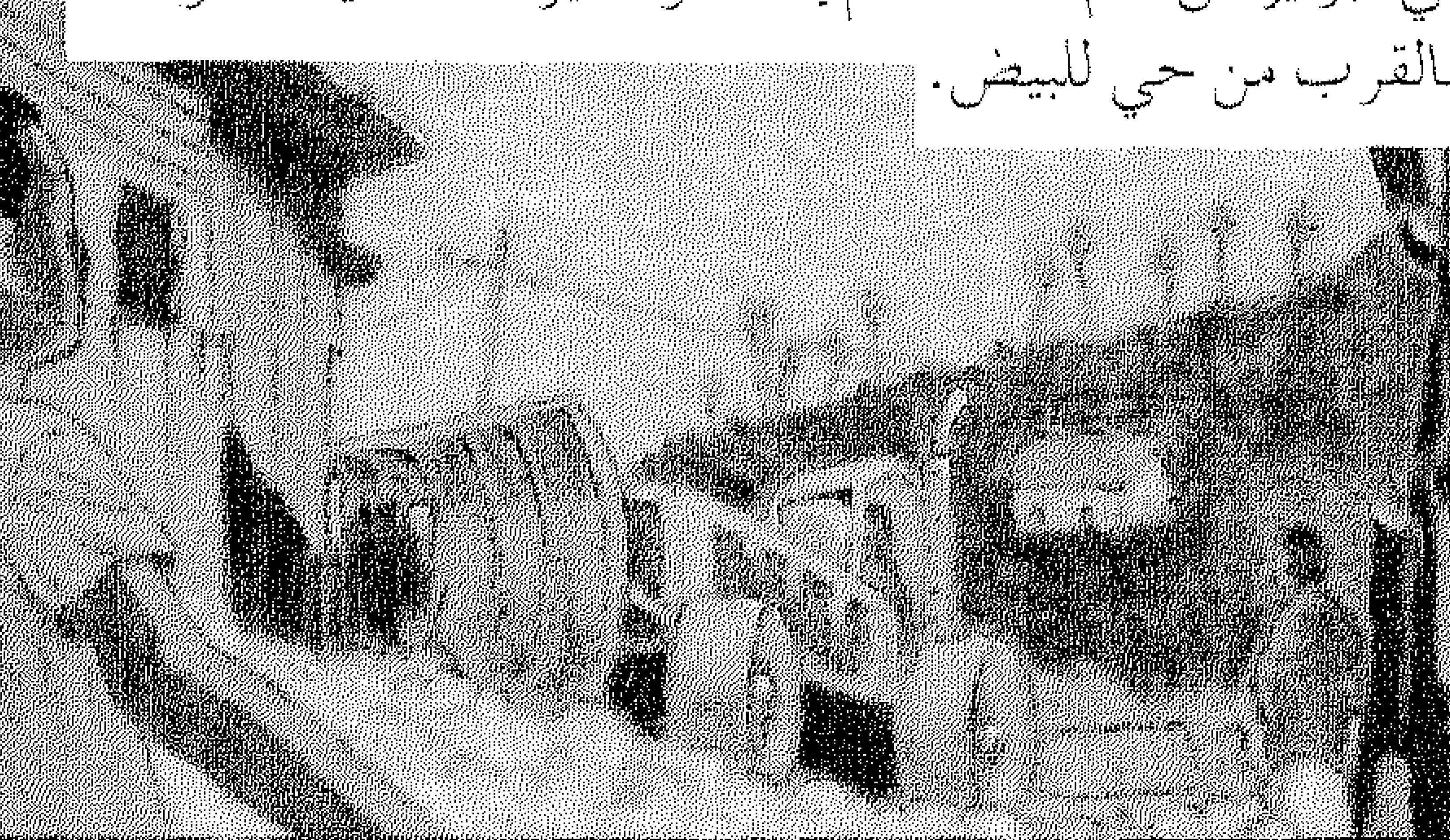
في عام 1950، أصبح مانديلا أحد قادة المؤتمر الوطني الأفريقي. وأخذ في التجول فيما بين أحياء السود بالمدن الصغيرة والضواحي بلا هوادة.

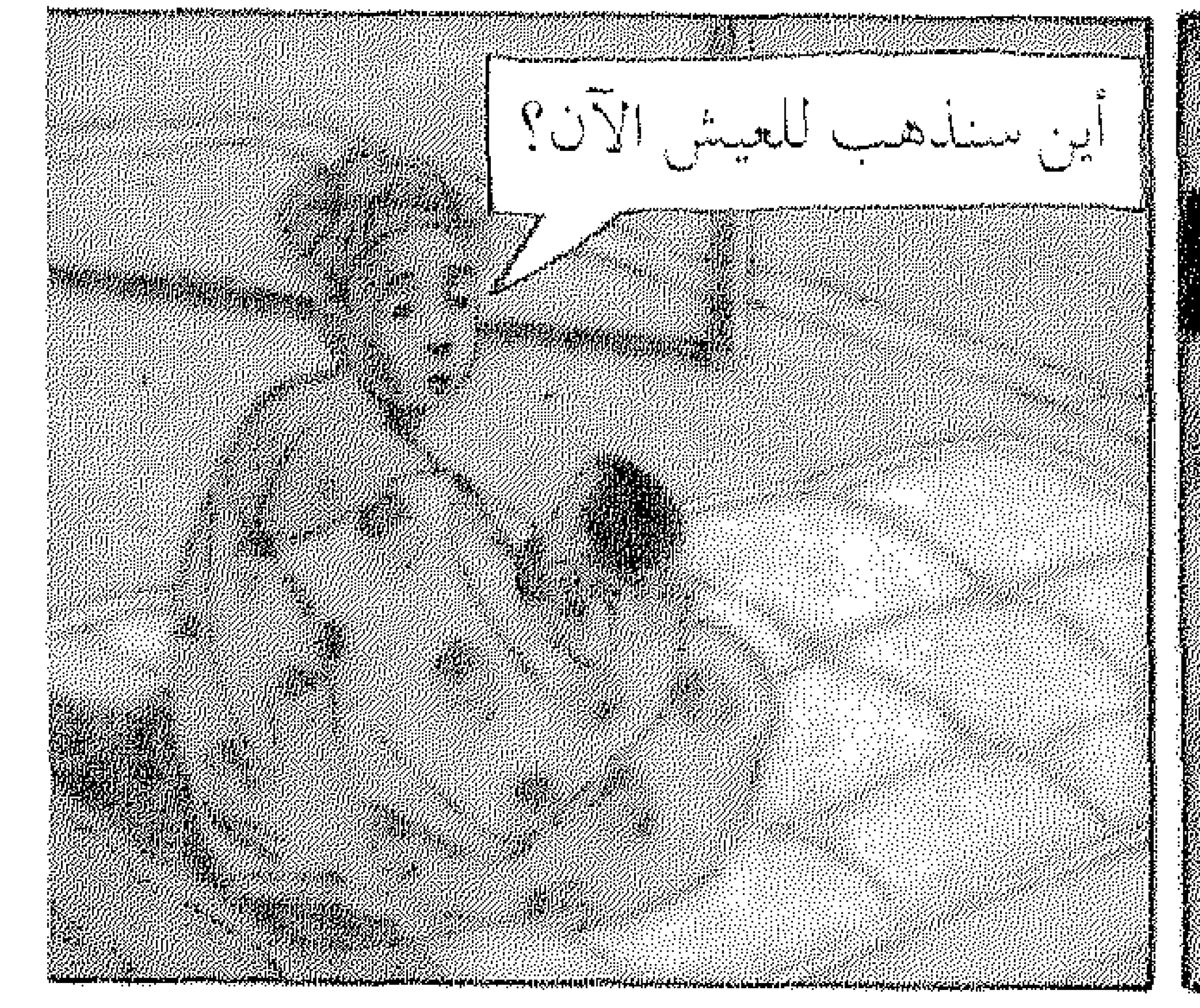


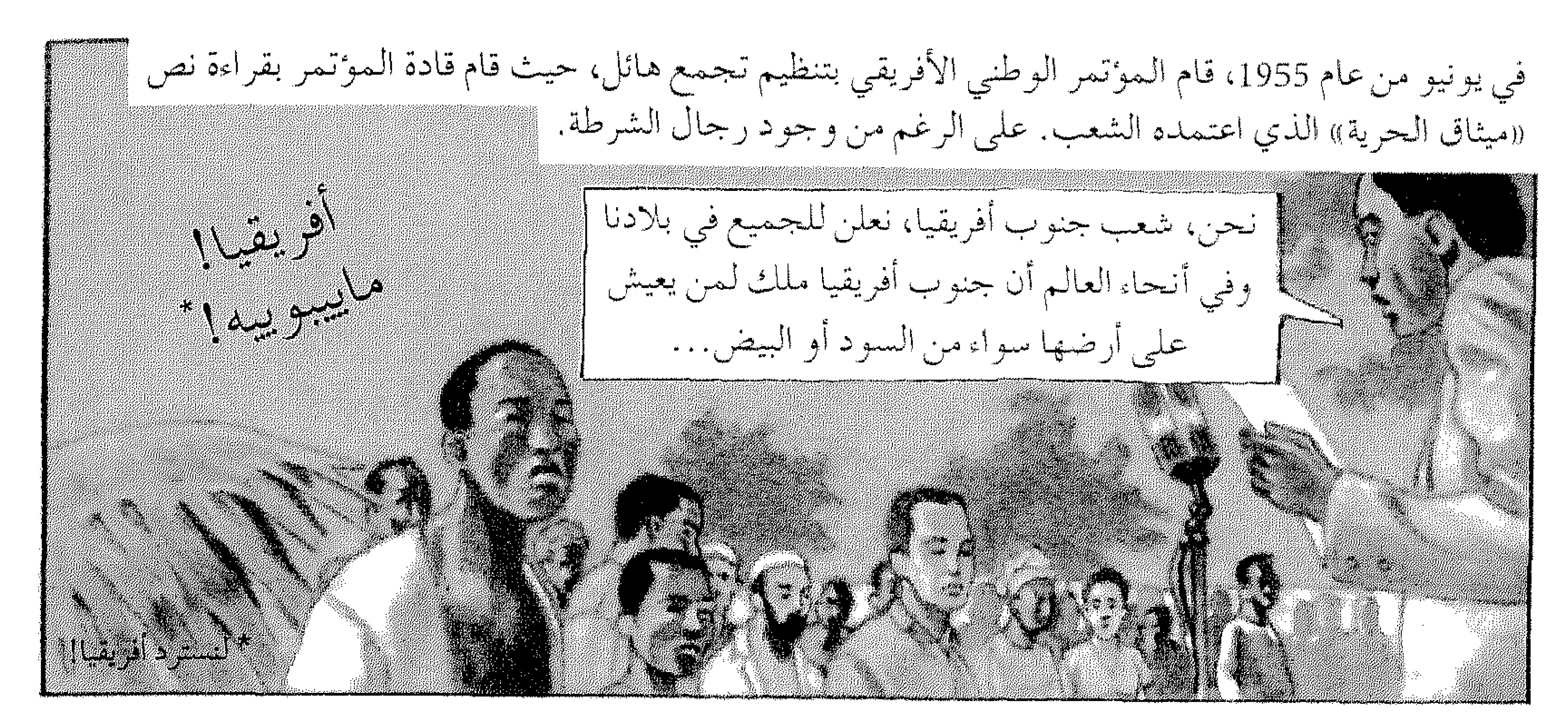
وفي عام 1952، افتتح مانديلا أول مكتب محاماة للسود في جوهانسبرج.



في فبراير من عام 1955، تم إخلاء وتدمير أحد أحياء السود بالقرب من حي للبيض.











واستمرت المحاكمة لمدة تزيد على السنوات الأربع.

إن ميثاق الحرية لا يهدد البيض. حتى إن البعض منهم وقَّعوا عليه بالفعل.



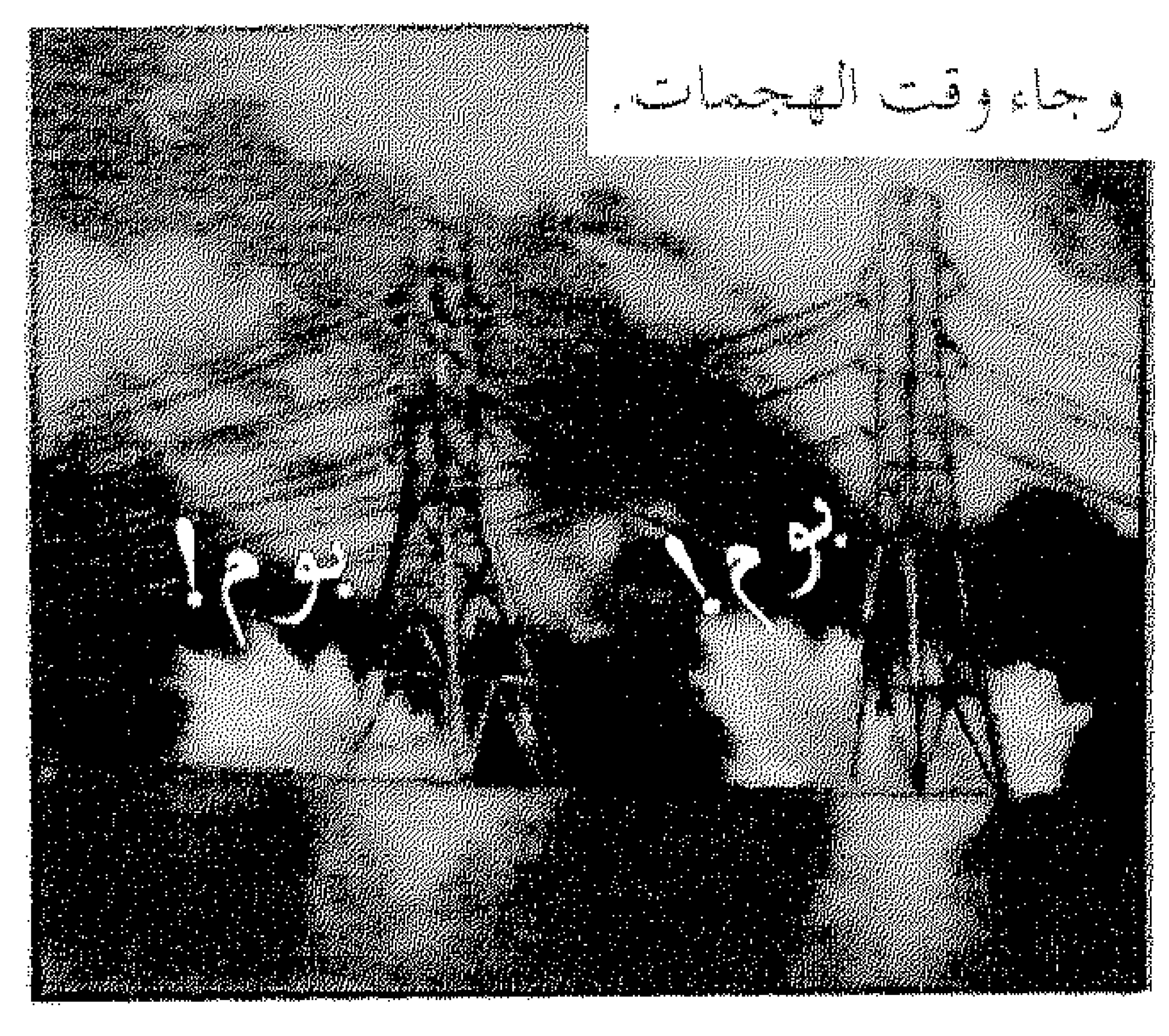




في 1961، تم تكثيف الإجراءات العنصرية مما اضطر مانديلا للاختباء.



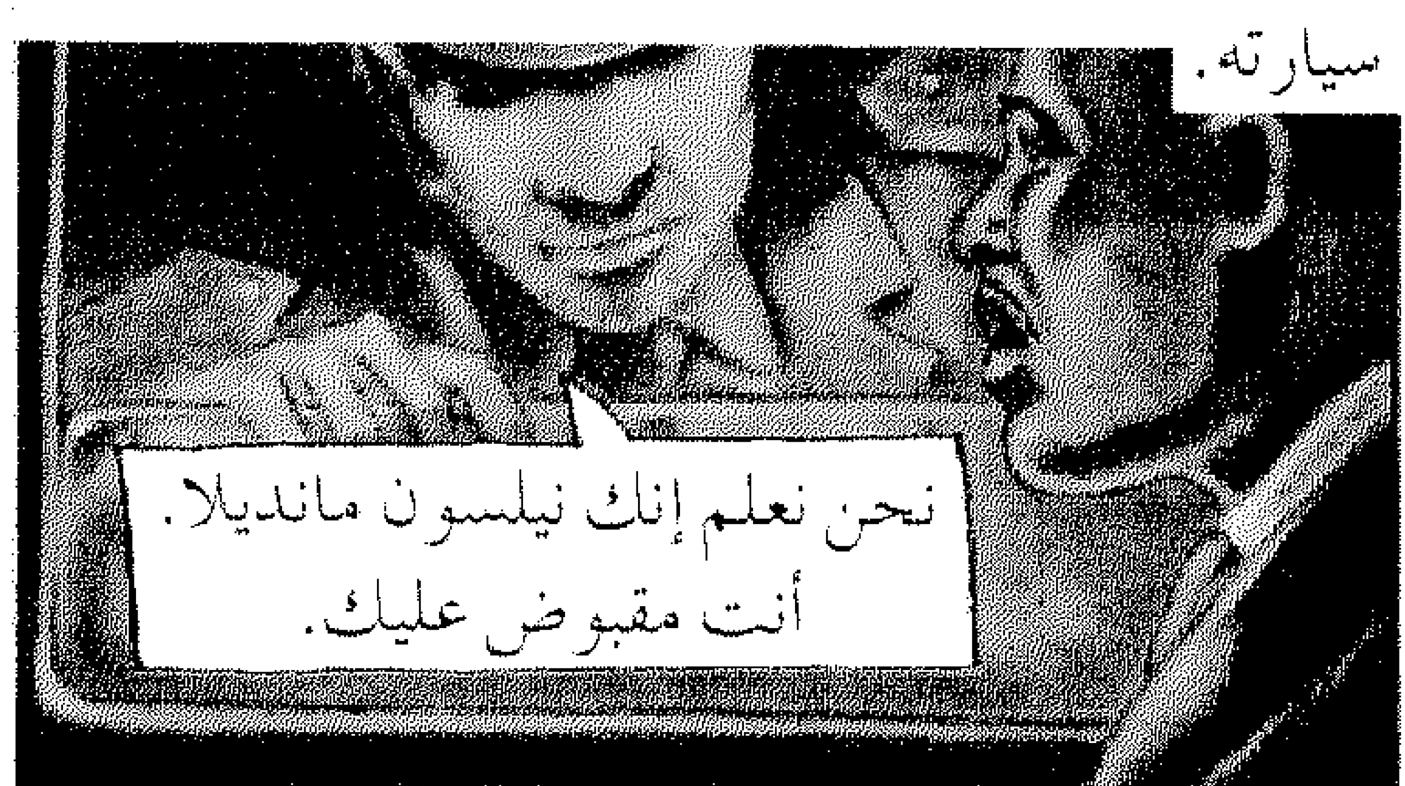
وجاء وقت الهجمات.



فسافر مانديلا سرًا إلى أفريقيا وبحث عن الدعم حتى في بريطانيا العظمى!.



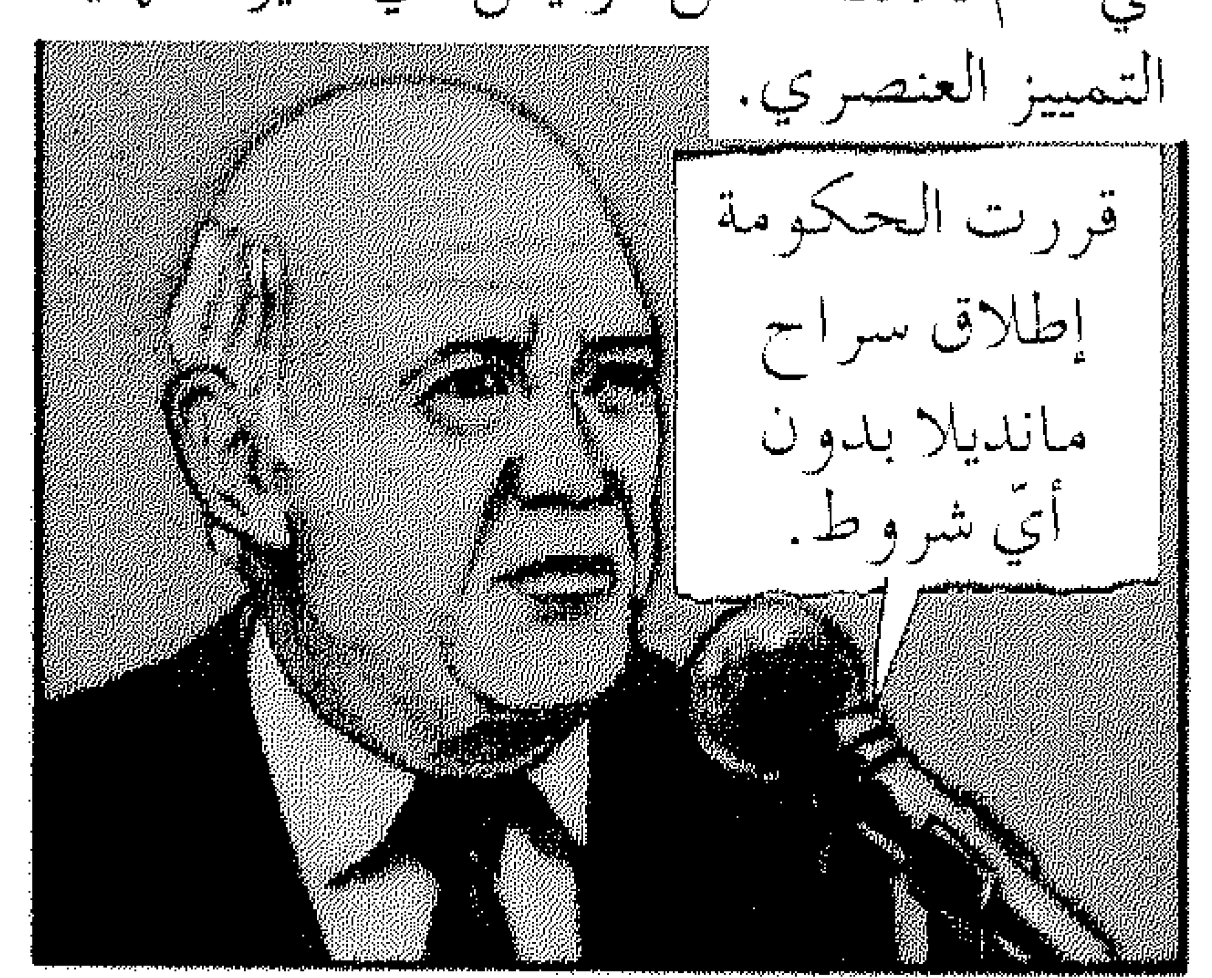
في أغسطس من عام 1962، وعند عودة مانديلا إلى جنوب أفريقيا، قام حشد من رجال الشرطة بتوقيف سيارته.



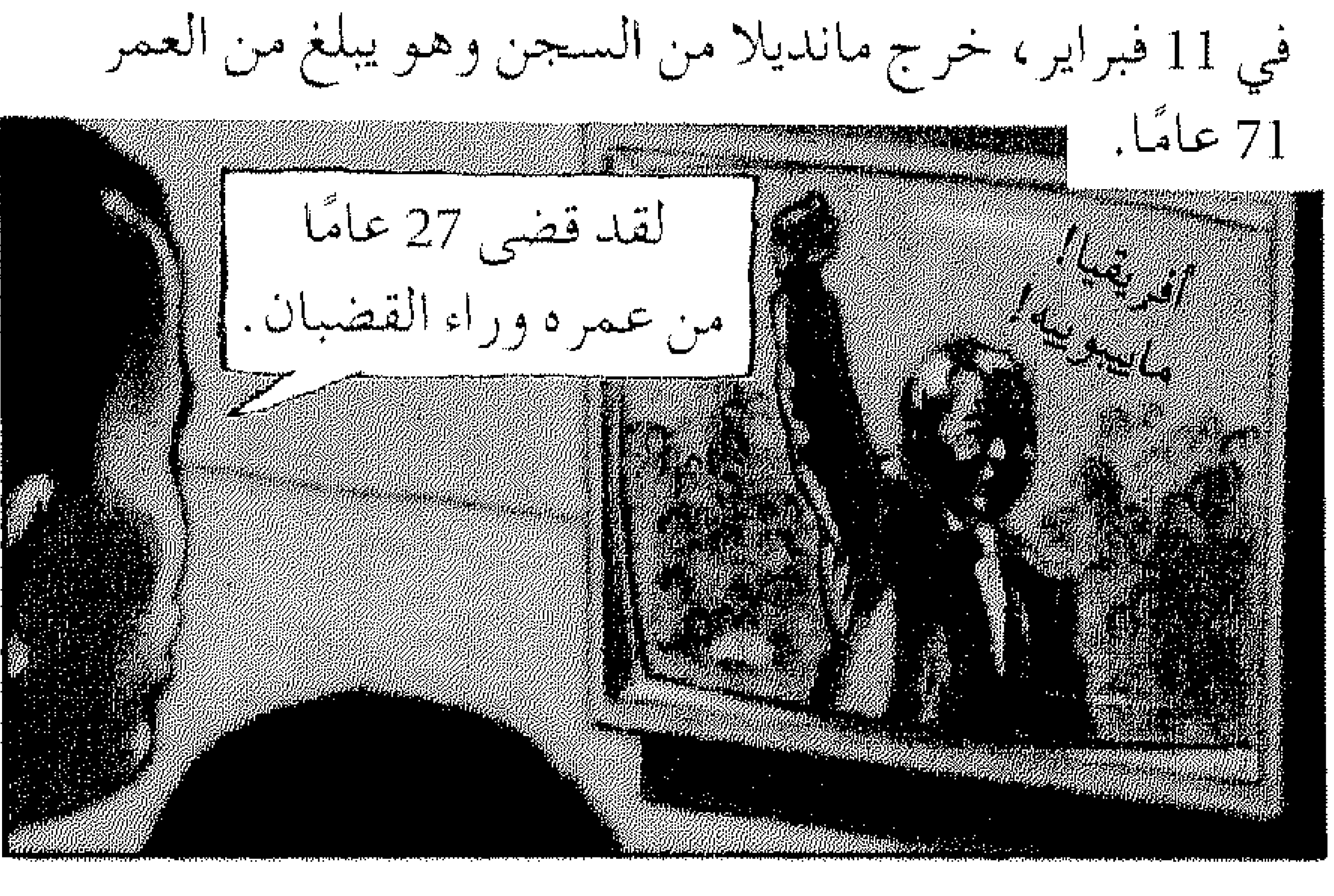
وفي عام 1963، تم إلقاء القبض على أعوان مانديلا. ونفيهم إلى جزيرة صغيرة.



في عام 1990، أعلن الرئيس دي كليرك نهاية التمييز العنصري.



في 11 فبراير، خرج مانديلا من السجن وهو يبلغ من العمر 71 عامًا.



سيناريو: كاترين بيشو – رسوم: تيري ألبا

التسلسل الزمني لأهم الأحداث في حياة مانديلا

1918 ميلاد مانديلا في شرق جنوب أفريقيا.

1927 وفاة والد مانديلا، والعهد به إلى عمه رئيس قبيلة تيمبوس ليتولى رعايته.

1939 مانديلا يدخل جامعة فورت هير.

1941 هروب مانديلا إلى جوهانسبرج حيث يقابل والتر سيزولو.

1944 انضمام مانديلا إلى المؤتمر الوطني الأفريقي «ANC» وزواجه من قرينته الأولى إيڤلين.

1948 فوز الحزب الوطني «الأفريكاني» في الانتخابات، وميلاد التمييز العنصري.

1952 المؤتمر الوطني الأفريقي يقوم بإطلاق حملة ضد العنصرية واعتقال مانديلا للمرة الأولى.

1955 اتهام مانديلا بالخيانة العظمى.

1958 زواج مانديلا من قرينته الثانيةويني.

1960 مذبحة شارڤيل وإعلان حالة الطوارئ.

1961 إطلاق سراح مانديلا بعد محاكمة طويلة وتشكيل المنظمة السرية أومكونتو وي سيزوي.

1964 إصدار حكم بالسجن مدى الحياة على مانديلا بتهمة التخريب والمؤامرة الثورية.

1976 مظاهرات التلاميذ في سويتو، وحصيلة تفوق الألف قتيل.

1990 إطلاق سراح مانديلا.

1993 حصول نيلسون مانديلا وفريدريك دي كليرك على جائزة نوبل للسلام.

1994 انتخاب مانديلا رئيسًا للجمهورية.

1999 نيلسون مانديلا يسلم الراية لتابو مبيكي.

2003 مانديلا يشكل جمعية لمكافحة الإيدز.

2006 تعيين مانديلا سفيرًا للضمير في منظمة العفو الدولية.



a better
«إن الإيمان القوي
هو سر البقاء
في قيد الحياة».



في مكان ما في ترانسكاي

وُلد روليلالا مابيدا مانديلا في 18 يوليو 1918، بقرية صغيرة تُدعَى مفيزو بإقليم ترانسكاي، الواقع في شرق جنوب أفريقيا. وكانت أمه نوزكيني هي الزوجة الثالثة للقائد جادْلَه مفاكانيسوا – مستشار ملك قبيلة تيمبوس، التي تنتمي إلى شعب الزوزا. كتب زعيم قضية السود فيما بعد في مذكراته: «لا أظن أن الأسماء تقرر مصير أصحابها أو أن والدي قد كشف الغيب بصورة أو أخرى عن مستقبلي». ومع ذلك، فلقد أصاب هذا الأب الذي كان يتولى رئاسة قبيلته عندما اختار اسم ابنه لأن روليلالا تعني بلغة الزوزا «الشخص الذي يخلق المشاكل».

وكتبت الأقدار أن يمضي التاريخ في جنوب أفريقيا في الاتجاه الذي من أجله سيخلق مانديلا المشاكل. ففي عام 1910، قام الإنجليز والأفريكانز

سكان جنوب أفريقيا الأوائل

كان السكان الأصليون لجنوب أفريقيا هم البوشمان. وترجع الآثار الأولى لهؤلاء البدو إلى 40 ألف سنة. وقد أصبح البوشمان مهددين بالانقراض حيث يبلغ عددهم الآن بضع عشرات من الآلاف فقط. ومنذ حوالي 2500 سنة، هاجر قوم البانتو من دلتا النيجر. وكانوا فلاحين ورعاة مهرة في زراعة القمح وتصنيع الحديد. وعاشوا في القرى. والبانتو هم أجداد شعوب الزُّولو والزُّوزا (التي ينحدر منها نيلسون مانديلا) وسوازي ونديبيلي وسوتو وشانجان وفندا الذين يشكلون 75% من إجمالي السكان الحاليين لجنوب أفريقيا. ويُطلق حاليًا اسم بانتو على مجموع هذه الشعوب الذين يتحدثون حوالي 400 لغة متقاربة.



الصورة: نيلسون مانديلا مرتديًا الزي التقليدي للزوزا (ما بين عامَيْ 1945 و1960).

بتشكيل اتحاد جنوب أفريقيا. وسرعان ما وضع الطرفان أول قوانين العنصرية التي سيرتكز عليها بعد عشرات السنوات نظام التمييز العنصري الذي اتسم بالعنف الشديد.

عندما بلغ مانديلا من العمر عامين، وقع والده ضحية لظلم البيض الذين جردوه من منصب رئيس القرية ومن ثمَّ من دخله، فأصبح لا يستطيع سد احتياجات عائلته. واضطُرت نوزكيني للرحيل عن مڤيزو مع ولدها. واستقرت في القرية المجاورة: كونو. وحتى تلك المرحلة، كان مانديلا كأي طفل آخر في مجتمع ريفي أفريقي تقليدي، يقوم برعاية القطيع والعديد من الأعمال الشاقة. وكان من ضمن أنشطته المفضلة لعبة رمي العصا «أو–تينتي» والتي كانت تهدف لتدريب الصِّبْية على فنون القتال. وسرعان ما أصبح روليلالا من الرماة المتميزين.

وصول الأوروبيين

في عام 1687، أقام الهولندي چان ڤان رايبيك أول وكالة لبيع السلع الأوروبية في جنوب أفريقيا. وخلال القرن الثامن عشر، قام الهولنديون الأوائل (الذين كان يُطلق عليهم بوير «Boer» نسبة إلى كلمة «بورجر» الهولندية والتي تعني مزارعين) بتوسيع رقعة أراضيهم. واصطدم هؤلاء بشعوب البانتو ثم بالإنجليز الذين كانوا يسيطرون على مستعمرة كيب تاون منذ عام 1815. وأخذ البوير على الإنجليز سياستهم التي رأوها متساهلة جدًا تجاه السود خاصة مع إلغاء العبودية في عام 1833. ومن أجل الحفاظ على نظام معيشتهم، قام البوير بالاتجاه إلى داخل البلاد والدخول في حرب ضد الزولو قبل تشكيل جمهوريات الترانسڤال المستقلة (عام 1852) ودولة أورانج الحرة (عام 1854). وفي نهاية «حرب البوير» (ما بين عامَيْ 1899-1902)، وضع الإنجليز أيديهم على السلطة في جنوب أفريقيا. وأصبح فيما بعد هدف الأفريكان –سلالة البوير– الحصول على الاستقلال من السيطرة البريطانية. وفي 1910، حصل هؤلاء على بعض صلاحيات الحكم الذاتي نتيجة لتشكيل اتحاد جنوب أفريقيا. وتم إعلان قيام جمهورية جنوب أفريقيا لاحقًا، في عام 1961.

بعدها ذهب الراعي الصغير إلى المدرسة وهو في السادسة من عمره. وأصبح بهذا أول عضو في عائلته يتلقى تعليمًا على غرار النظام الأوروبي. وهنا أطلقت عليه مُعلمته الاسم الإنجليزي: نيلسون. وفي أول أيام الدراسة، خلع الرداء الوحيد الذي كان يلبسه منذ ولد وهو غطاء يتدلى من الكتف ويلف الخصر، وارتدى بنطالًا قديمًا لأبيه بعد تقصيره.

وهكذا في ملتقى تلك الثقافتين: الأفريقية والأوروبية، ولدت أفكار القائد الثوري القادم.

تلقى مانديلا أول صدمة في حياته في عام 1927 حين مات والده إثر إصابته بمرض السل. ورحل روليلالا للعيش في مكيكزويني في حاشية ابن عمه زعيم التمبوس، چونجينتابا داوتي الذي أصبح كذلك مُعلمًا له. وعند وصوله إلى القرية الملكية، أبصر الراعي الصغير سيارة فورد ماركة ڤي 8 تتوقف وسط سحابة من الأتربة. ورأى رجلًا يرتدي زيًا غربيًا يخرج من السيارة. وقام بعض السكان بتحيته: «صباح الخير يا چونجينتابا». وكتب مانديلا فيما بعد في مذكراته: «في هذه اللحظة، أدركت أن الحياة يمكن أن تسمح لي بأن أكون أكثر من مجرد بطل قتال بالعصا».

وبالفعل، استطاع وهو بالقرب من مُعلمه، أن يتابع كيفية قيادة شئون «المملكة». وكان على الأخص معجبًا بالأسلوب الذى كان ينتهجه هذا القائد لاتخاذ القرارات المصيرية الحاسمة بالإجماع، بعد مناقشات لا نهاية لها في المجلس. وذكر مانديلا في مذكراته: «إن حياتي مع الملك وبلاطه قد أثرت بشدة في الفكرة التى كونتها فيما بعد عن مفهوم القيادة».

وكذلك أدرك مانديلا خلال إقامته في مكيكزويني أن تاريخ أجداده لا يقتصر فقط على ما يحكيه البيض في كتبهم. وانبهر الطفل الصغير بقصص المعارك التي قادها مقاتلو الزوزا ضد المحتل الأوروبي، وكذلك قصة استسلامهم.



أن تصبح «إنجليزيًا أسود»



في عام **1934**، يقوم عمال سود بتنقية الماس الذي استخرجه الأفريكان من مناجم في جنوب أفريقيا. وكان الأفريكان يتحكمون في الاقتصاد القومي كله.

القوانين العنصرية الأولى

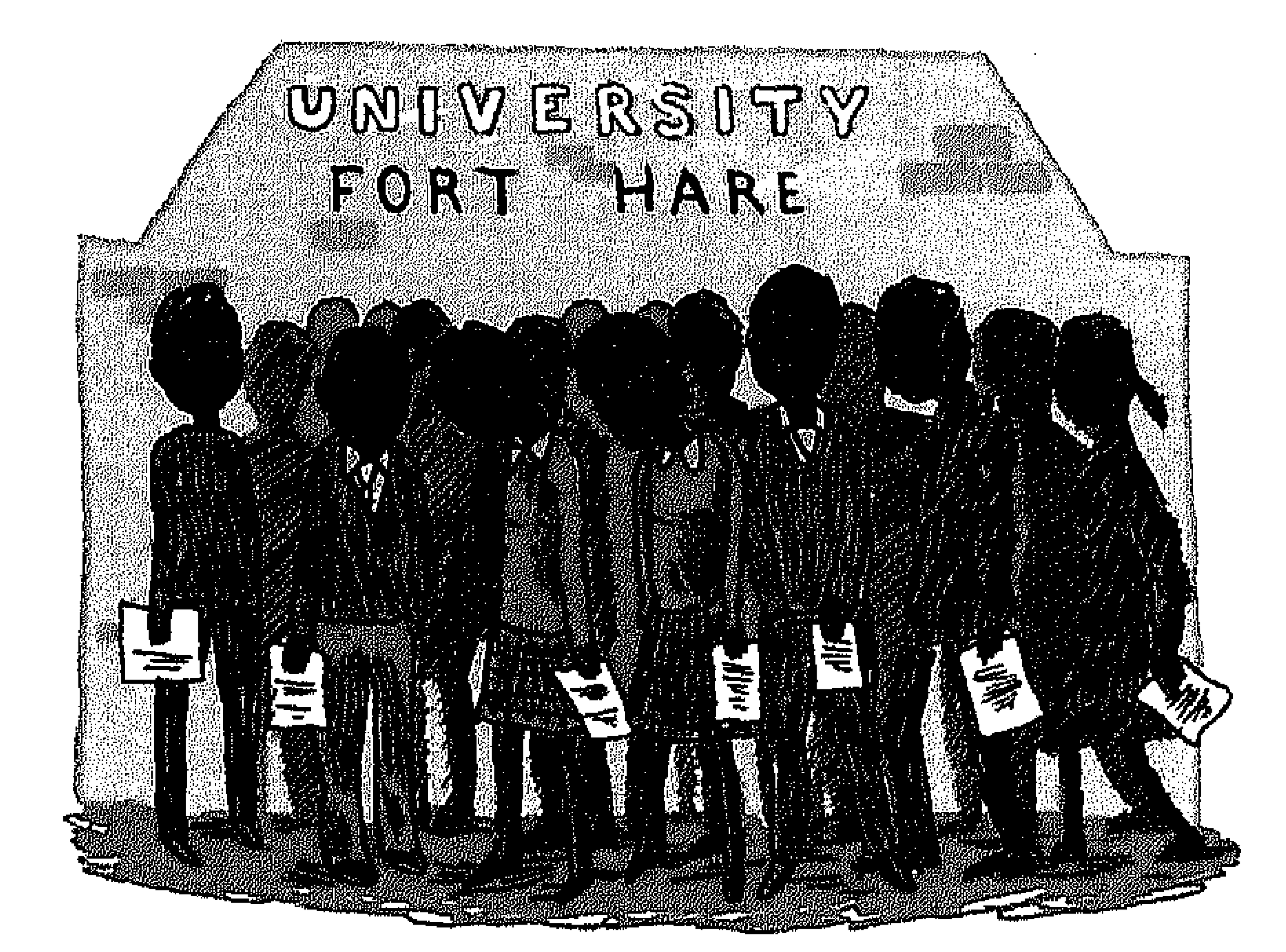
في أوائل عام 1910، قامت حكومة اتحاد جنوب أفريقيا الناشئة بالتصويت على أول قوانين العنصرية. وكانت البداية هي قانون العمل الذي نص على أنه إذا ترك شخص أسود أو ملون عمله من تلقاء نفسه، تتم ملاحقته قانونًا. ثم صدر بعد ذلك قانون العمل في المناجم الذي ينصُّ على حق البيض في احتكار بعض المناصب. وأخيرًا، ظهر قانون الأراضي للسكان الأصلين والذي يحدد نسبة الأراضي التي يمكن للسود امتلاكها بـ7.3% فقط من كل مساحة جنوب أفريقيا، في حين يحتفظ البيض بحق تملُّك باقي الأراضي بدون قيد أو شرط، مع الأخذ في الاعتبار أن هؤلاء كانوا لا يمثلون سوى 20% فقط من إجمالي عدد السكان (طبقًا لإحصائية تمت في عام 1904).

[illegible] روليلالا دراسته بالمدرسة وذلك لأن معلمه كان يعده لمنصب مستشار ملك التمبوس القادم، الذي كان يشغله والده. وفي عام 1934، وفي أعقاب احتفاليات ختانه، والتي كانت ترمز إلى أنه أصبح رجلًا، رحل مانديلا للالتحاق بمدرسة كلاركبوري الواقعة في مدينة صغيرة على بُعْد ستين كيلومترًا من مكيكزويني. ومنذ تلك اللحظة، تغير إطار حياة مانديلا وتعرّف على ملامح أفريقيا الحديثة. وبعد ذلك بسنتين، توجه لأول مرة إلى ترانسكاي للالتحاق بمدرسة هيلدتاون الثانوية. وتابع الشاب دراسته بجدية وكان حلمه الوحيد أن يصبح «إنجليزي أسود». وبدأ في التعرف إلى تلاميذ آخرين من قبائل مختلفة ليكتشف مانديلا أنه بالإضافة إلى هُوِيّة التمبوس والزُّوزا التي كان يحملهما، فإنه جزء من شعب أسود كبير. وبدأ يتشكل لديه مفهوم أن جنوب أفريقيا هي بمثابة «قوس قُزَح» من الهويات، الأمر الذي سينجح في إقناع الجميع به في نهاية نضاله السياسي.

طقوس البلوغ عند الزوزا

تُعد طقوس البلوغ من أهم المراحل في حياة الصبيان لدى قوم الزوزا، والتي تبلغ ذروتها عند الختان. وهذه عادة تُمارَس على مستوى جنوب أفريقيا وترمز إلى المرور من مرحلة الطفولة إلى الرجولة، حيث يعيش الصبية خلال هذه الفترة في عزلة لعدة أسابيع. وبعد عملية الختان، يقومون بطلاء أجسادهم باللون الأبيض واستكمال عدة طقوس، منها على سبيل المثال اختراع لغة سرية.
وهذه الطقوس قائمة حتى اليوم في الأماكن النائية بجوهانسبرج وكيب تاون حيث يعيش هؤلاء الصبية في عزلة بداخل أكواخ من البلاستيك بُنيت بجوار الطرق السريعة.

من الصحوة إلى



جامعة فورت هير – خطاب اعتذار

في نهاية دراسته الثانوية في عام 1939، توجه نيلسون مانديلا للالتحاق بجامعة فورت هير التي كان يتعلم فيها صفوة المجتمع الأسود في جنوب أفريقيا. واحتفالًا بهذه المناسبة، اصطحبه معلمه إلى أومتاتا – عاصمة ترانسكاي – لشراء بدلة من ثلاث قطع على الطراز الأوروبي. وهنا التُقطت أول صورة فوتوغرافية معروفة لرئيس البلاد القادم، الذي ظن في هذه اللحظة أن مستقبله واضح أمامه: سيصبح إما مترجمًا أو موظفًا لدى هيئة الشئون البلدية.

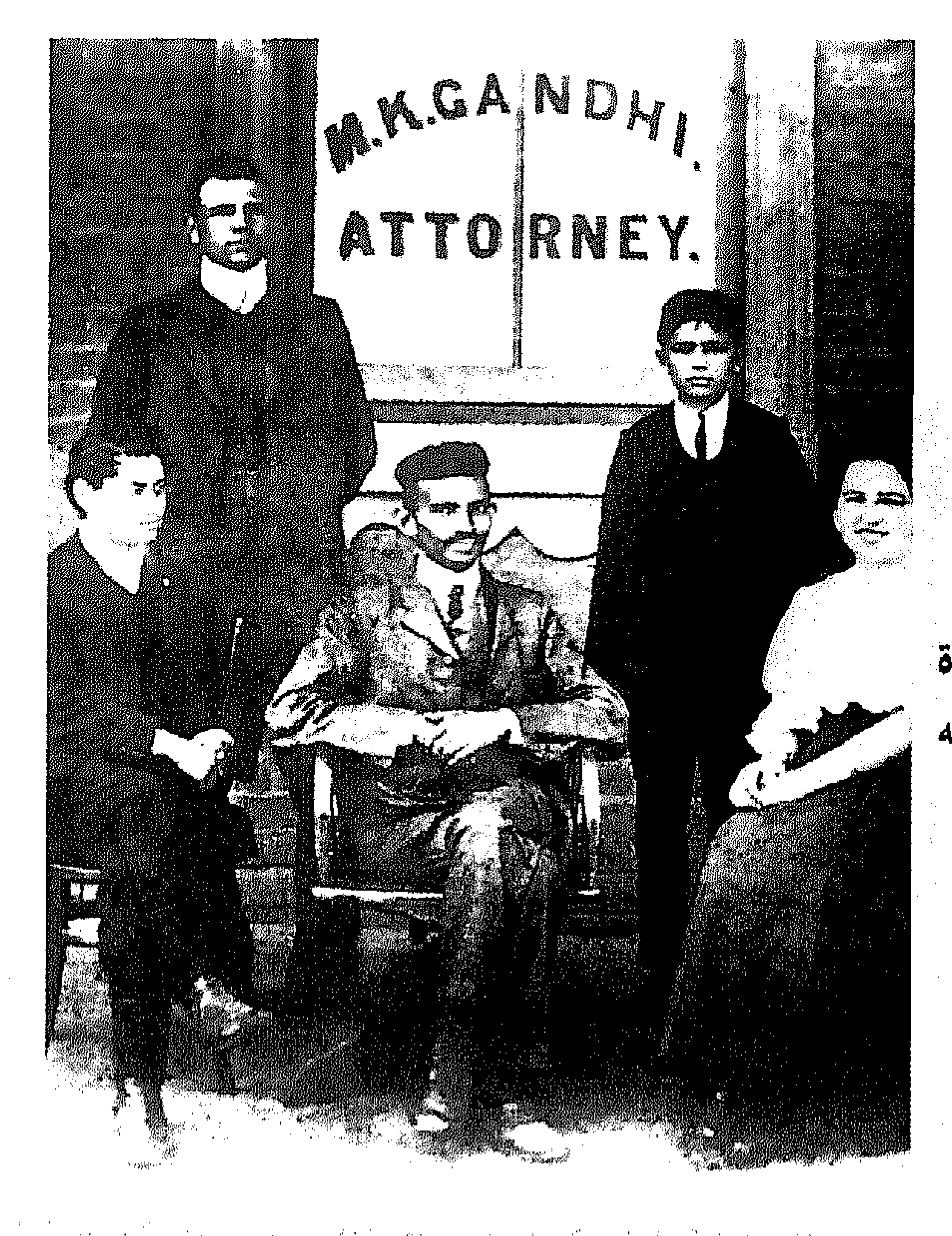
إلا إن مشاعر الاعتزاز والفخر بالانتماء إلى تلك الصفوة المحدودة (بلغ عدد الذين التحقوا بفورت هير 625 طالبًا فقط في الفترة ما بين عامَيْ 1916–1935) قد امتزجت تدريجيًا بإدراك قوي لحالة السود في البلاد والتفرقة التي يعانون منها. فلم تكن هذه المشكلة قائمة في مكيكزويني لأن عدد السكان البيض هناك محدود، لكن هنا فالسكان البيض أكثر عددًا، وعليه فالواقع اليومي أصعب. وواجه هذا الرجل الفَخُور بأصوله الملكية الشعور بإهانة كبريائه. وبدأ في استيعاب «أن الرجل الأسود ليس مضطرًا إلى قبول العشرات من الإهانات التي تُوجَّه إليه يوميًا».

وعلى الصعيد الدولي، كانت الحرب العالمية تكتسح جميع الأرجاء. وانقسم البيض ما بين أنصار الحزب الوطني المؤيد لمبادئ النازية، والأحرار الذين يدافعون عن فكرة الانخراط إلى جانب إنجلترا في الحرب. وكان من ضمن هؤلاء بعض العناصر المحدودة من طلاب جامعة فورت هير. إلا أن صحوة مانديلا للانخراط في السياسة لم تكتمل حقيقة سوى في عام 1941 من خلال حادثة سُجلت في تاريخ الجامعة، وهي اعتداء مدير أبيض على موظفة سوداء. ونتيجة لذلك، قام ثلاثة أرباع الطلاب بالإضراب، ووصل إلى حد الاشتباك مع الإدارة. وبعدها، قامت الجامعة بفصل الجميع واشترطت لإعادة قبولهم أن يقدموا طلبًا صريحًا مصحوبًا بخطاب اعتذار.



نيلسون والعدالة.

الهـــروب



في عام 1903، غاندي (في منتصف الصورة) يعمل محاميًا في جنوب أفريقيا. كانت أفكاره عن مبدأ المقاومة السلمية عاملًا مؤثرًا على السود خلال معركتهم من أجل الحرية.

للعنصرية ضحايا آخرون: الهنود

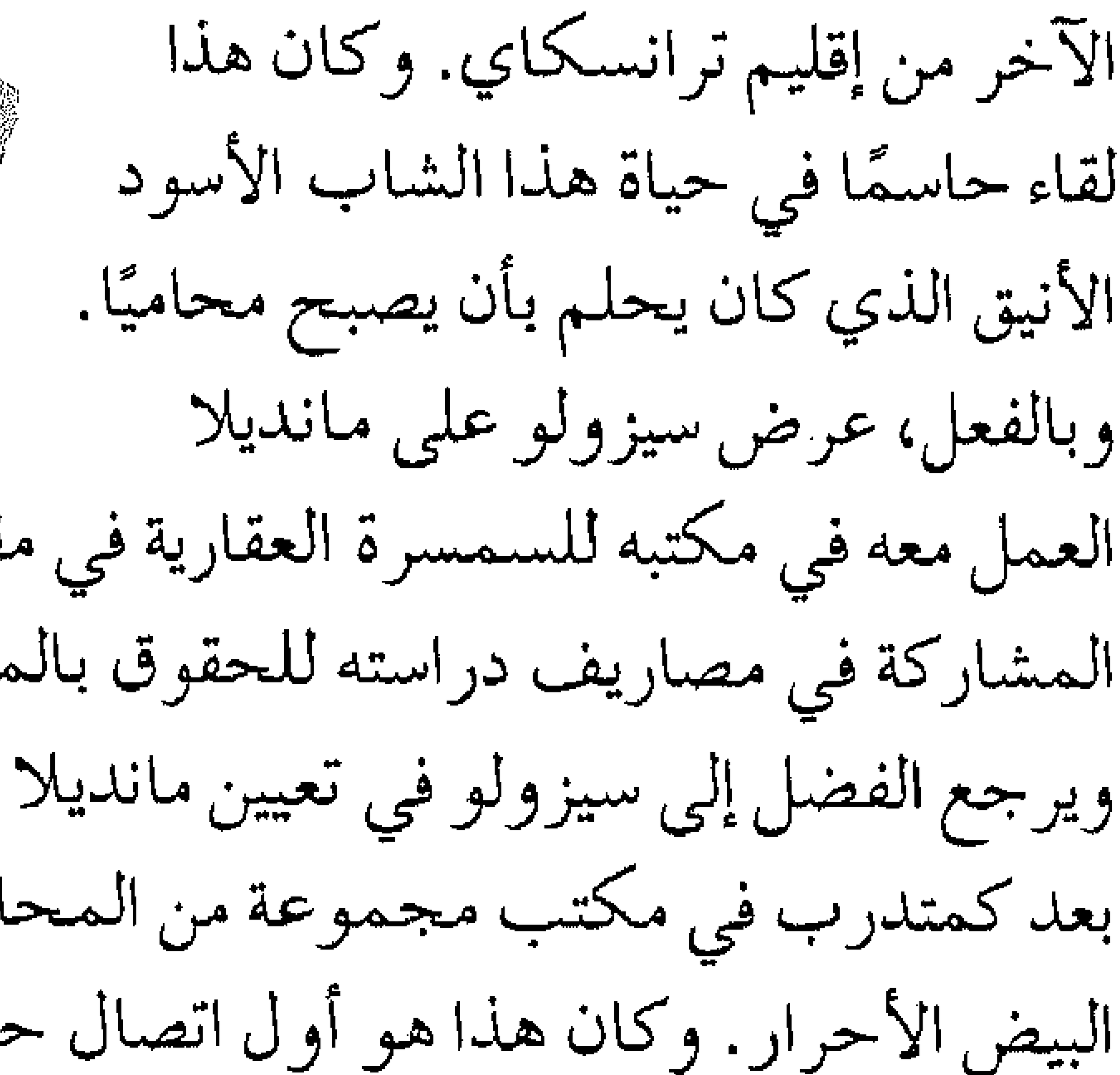
في القرن التاسع عشر، قام المستعمرون الإنجليز والبوير بجلب هنود للعمل في مزارع قصب السكر (بلغت نسبة الهنود 2.3% من إجمالي سكان جنوب أفريقيا في عام 1904). وخلال عام 1891، جاء غاندي للعيش في المستعمرة البريطانية في أفريقيا الجنوبية. وكان مقدرًا أن تكون فترة إقامته وجيزة لحين الانتهاء من الدفاع عن أحد إخوانه من الهنود. ولكن تجربة الظلم الواقعة على أهل بلده كان لها أثر شديد في نفسه، مما جعله يمد فترة إقامته بجنوب أفريقيا إلى اثنين وعشرين عامًا. فمن أجل محاربة قوانين العنصرية المفروضة على المجتمع الهندي بجنوب أفريقيا، قام غاندي بتأسيس مبدأ النضال بدون اللجوء إلى العنف. واستطاع من خلال حملة واسعة من المقاومة السلمية أن يحصل بعد سبع سنوات على تنازلات مهمة من المملكة البريطانية. ومن المعروف أن نضال غاندي قد أسفر عن استقلال الهند في عام 1947. وتأثر المؤتمر الوطني الأفريقي بهذا المنهج في نضاله ضد الظلم الواقع على السود (انظر ص. 27).

وأذعن جميع الطلاب فيما عدا اثنين – أحدهما مانديلا الذي قرر عدم الرجوع إلى الجامعة. وعندما عاد إلى مكيكزويني، وجد أن ابن عمه چوستيس– ابن چوجينتابا – قد ترك دراسته هو الآخر بسبب عدم اهتمامه بها. وفي ظل هذا الموقف المتوتر وخوفًا عليهما، قام مُعلِّم الأول ووالد الثاني بإبلاغهما بقراره تزويجهما. ولكن أوان هذا الأمر كان قد فات، فمانديلا الذي كان يبلغ من العمر 24 عامًا، كان قد اتسعت مداركه وفهم أن هناك عالمًا واسعًا في انتظاره بعيدًا عن ترانسكاي. فقرر الفرار مع صديقه إلى چوهانسبرج.

مدينة الذهب

أُنشئت چوهانسبرج عام 1886 في شمال شرق جنوب أفريقيا، في أعقاب اكتشاف الذهب على هضاب ويتوترسراند. وكانت هذه المنطقة من إقليم الترانسڤال غاية في الفقر. إلا أن التكالب على الذهب كان يجذب حوالي 10 000 شخص سنويًا إلى أن وصل تعداد السكان إلى 166 000 عام 1900. وبلغ عدد المناجم في ذلك الحين 50 منجمًا. واليوم، فإن 40% من الذهب المستخرَج في العالم يأتي من أراضي چوهانسبرج، أكبر مدينة بجنوب أفريقيا وأكثرها سكانًا على مستوى أفريقيا.

وبعد رحلة بطولية بالقطار ثم بالسيارة، وصل نيلسون إلى جوهانسبرج حيث وجد عملًا كحارس ليلي في منجم. وأقام في ألكساندرا، وهي بلدة فقيرة بائسة تقع على حدود المدينة الكبيرة. وهنا تعرف إلى والتر سيزولو المعروف بماضيه الثوري. وكان سيزولو هو الآخر من إقليم ترانسكاي. وكان هذا لقاء حاسمًا في حياة هذا الشاب الأسود الأنيق الذي كان يحلم بأن يصبح محاميًا. وبالفعل، عرض سيزولو على مانديلا العمل معه في مكتبه للسمسرة العقارية في مقابل المشاركة في مصاريف دراسته للحقوق بالمراسلة. ويرجع الفضل إلى سيزولو في تعيين مانديلا فيما بعد كمتدرب في مكتب مجموعة من المحامين البيض الأحرار. وكان هذا هو أول اتصال حقيقي لمانديلا مع البيض. ويحكي مانديلا قائلًا: «في ذات يوم، كنت أقوم بإملاء نص على سكرتيرة بيضاء عندما دخل علينا عميل أبيض. وظهر عليها بوضوح علامات الحرج. ولتثبت إني لست رئيسها في العمل، أخرجت من محفظتها ستة بنسات وقالت لي: «نيلسون، من فضلك اذهب لشراء شامبو لي»».



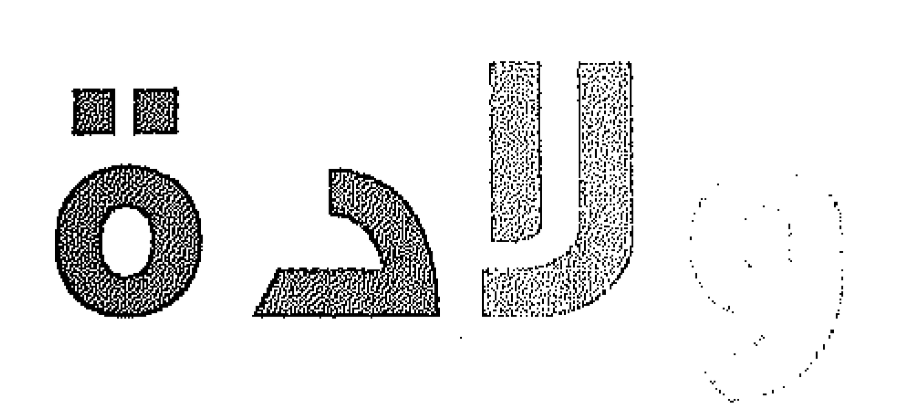




والتر سيزولو



أوليفر تامبو

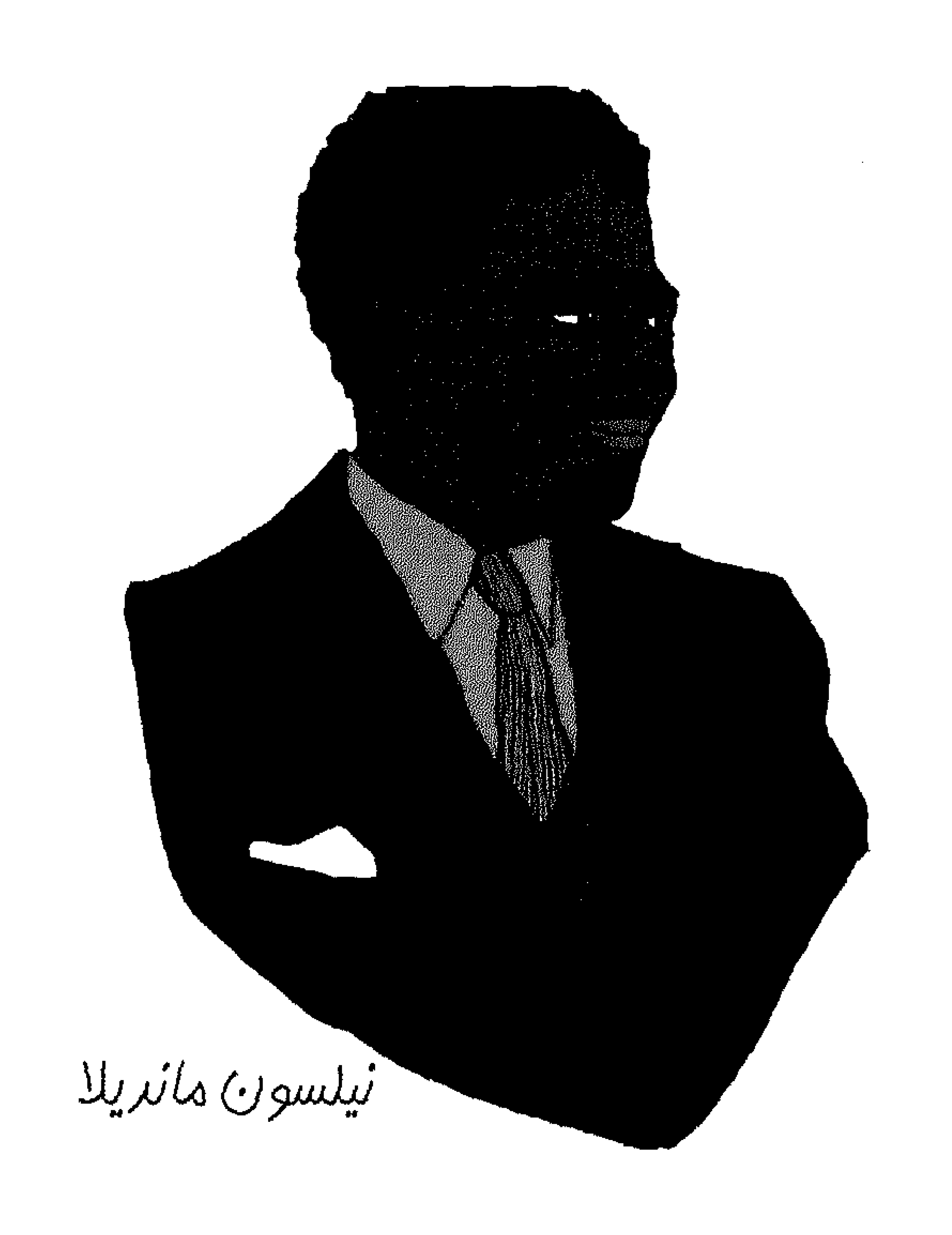


ولادة

كانت الحياة في جوهانسبرج صعبة بالنسبة لأي شاب أسود. أما بالنسبة لمانديلا فكانت مليئة بالإثارة حيث استطاع الاختلاط بالعديد من الأشخاص من السود والبيض والهنود والملونين خلال الحفلات التي كان ينظمها سيزولو؛ وكذلك أمكنَهُ التعرف إلى عناصر تقدمية مختلفة من المناضلين. وفي عام 1943، قام أحدهم بتقديم مانديلا إلى أنطون لامبيد، وهو محام من أصول متواضعة يدافع عن هُويّة وطنية أفريقيّة بشكل مطلق. وكان يرى ضرورة قيام الأفارقة بتحرير أراضيهم من المحتل الأجنبي. مما دفع مانديلا لقول: «إن مبادئ لامبيد مسّت وترًا قويًا في نفسي».

والتر سيزولو

ولد والتر سيزولو في عام 1912. وهو أحد الشخصيات الأساسية المؤثرة في تاريخ النضال من أجل تحرير السود في جنوب أفريقيا. ومنذ 1930، انخرط سيزولو في النضال. وفي عام 1940، انضم إلى المؤتمر الوطني الأفريقي وأصبح أمينًا عامًا له في الفترة ما بين عامَيْ 1949 و1954. وتم إلقاء القبض عليه أكثر من مرة، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة في نفس الوقت مع مانديلا في 1964. وعند إطلاق سراحه في عام 1991 بعد قضاء 26 عامًا وراء القضبان، تم انتخابه نائبًا لرئيس المؤتمر، الذي كان قد أعلنت شرعيته من جديد داخل جنوب أفريقيا. تُوفّي والتر سيزولو في 5 مايو 2003 عن عمر يناهز التسعين. وعندما علم مانديلا بخبر وفاة صديقه، قال: «إن جزءًا مني قد مات».



نيلسون مانديلا

مناضل

المؤتمر الوطني الأفريقي

أُنشئ المؤتمر الوطني الأفريقي في 8 يناير 1912 بعد مضي سنتين من إقامة اتحاد جنوب أفريقيا. وأقام هذا المؤتمر مجموعة من ممثلي الكنائس وعدد من الأشخاص الملونين. وكان الهدف من هذا المؤتمر هو توحيد مختلف شعوب جنوب أفريقيا من أجل الدفاع عن حقوقهم وحرياتهم. وخلال الأربعينيات من القرن العشرين وتحت تأثير مؤسسي رابطة الشباب - نيلسون مانديلا ووالتر سيزولو وأوليفر تامبو، قامت المنظمة السوداء بتوحيد صفوفها ونادت إلى العصيان المدني ضد التمييز العنصري. ونتيجة لحظر المؤتمر خلال الستينيات من نفس القرن، نقلت المنظمة مقرها إلى لندن ثم إلى زامبيا في عام 1975. وفي 1994، نجح المؤتمر الوطني الأفريقي في أول انتخابات رئاسية حرة في جنوب أفريقيا. ثم أعيد انتخاب المؤتمر في الفترة ما بين عامي 1999 و2004.

وفي عام 1944، انضم مانديلا إلى صفوف المؤتمر الوطني الأفريقي إلى جانب والتر سيزولو. وكان يقود الحركة السوداء آنذاك مجموعة من الأشخاص الضعفاء الذين أضنتهم الصراعات القَبَليّة. وقام مانديلا بإعادة النظر في هيكل وفلسفة المنظمة، وذلك بالتعاون مع كل من سيزولو وأوليفر تامبو، وهو زميل قديم من فورت هير وصل إلى جوهانسبرج في العام السابق. وشكل الثلاثة رابطة الشباب التي أصبح مانديلا أمينًا عامًا لها.

وفي نفس العام، تزوج نيلسون من قرينته الأولى إيفلين وهي قريبة والتر. واستقر الزوجان في حي أورلاندو الغربي بسويتو وهي إحدى الضواحي المخصصة للسود بجوهانسبرج. وفي نفس العام، رُزق مانديلا بأول ابن له من هذه الزيجة التي أسفرت عن ثلاثة أولاد.



نيلسون مانديلا ووالتر سيزولو
خلال اجتماع بسويتو في 13 فبراير 1990.

آمال سرعان ما أصابها الإحباط

في عام 1945، أنعشت نهاية الحرب العالمية الثانية بعض الآمال لدى السود في جنوب أفريقيا الذين ظنوا إنهم لن يتم نسيانهم في حركة التحرير التي كانت تحدث على مستوى العالم. وفي 10 مايو، قام حوالي عشرين ألف شخص بالتظاهر في جوهانسبرج، تصاحبهم أصوات الموسيقى الصاخبة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها السود بالتظاهر بكل حرية في وسط هذه المدينة البيضاء. وكانت أيضًا آخر مرة بالرغم من توقيع جنوب أفريقيا على ميثاق الأمم المتحدة في 26 يونيو 1945. وفي نفس الإطار، أقام السكان الهنود مظاهرة سلمية في عام 1946 للاعتراض على العزلة التي فُرضت عليهم. وكانت الطبيعة السلمية للنضال الهندي مصدرًا لإلهام مانديلا في معاركه المستقبلية.

الحزب الوطني

أُنشئ الحزب الوطني الأفريكاني (نسبة إلى سلالة المستعمرين الهولنديين الذين استقروا بجنوب أفريقيا) ذو التوجه العنصري الواضح، في عام 1914 على يد البوير (اسم يطلق على هولنديّي جنوب أفريقيا) الذين كانوا يرفضون التعاون مع إنجليز جنوب أفريقيا. ووصل هذا الحزب إلى الحكم في عام 1948. وكانت سياسته تقوم على تفسير متشدد للعهد القديم، مما دعا البوير إلى الظن بأن الأفريكان هم شعب الله المختار الجديد، وأن أرض الميعاد هي جنوب أفريقيا. وفي عام 1948، أعلن رئيس الوزراء دانيال مالان قائلًا: «في الحقيقة، إن تاريخ الأفريكان يوحي بإرادة وتصميم وشعور بأن مجتمع الأفريكان ليس من عمل الإنسان ولكن من إبداع الرب».



الأول من مايو عام 1950

إلا أنه في عام 1948، جاءت الضربة القاضية بوصول الحزب الوطني الأفريكاني إلى الحكم على عكس كافة التوقعات. وهنا بدأ الحزب في اتخاذ مبادرة لإعلان مجموعة من القوانين العنصرية والتي تؤسس شرعية التفرقة. ومن هنا ظهر التمييز العنصري. وفي حين كان العالم كله يشهد بداية حركة التحرر من الاستعمار مع كثير من الصعوبات، كانت جنوب أفريقيا قد أشاحت بوجهها عن التاريخ.

أما بالنسبة لمانديلا وأعوانه، فكانوا يرون أن هذا الوقت يستلزم تكثيف حركة النضال. وفي قلب المؤتمر الوطني الأفريقي، قامت رابطة الشباب بتأكيد أهدافها الطموح: يجب أن يتخلى الأوروبيون تمامًا عن فرض سيطرتهم على أفريقيا وقبول إعادة تقسيم الأراضي بصورة عادلة والمساعدة في إقامة ديمقراطية حرة.

وفي عام 1949، قامت رابطة الشباب بتغيير تَوَجُه قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي وأخذت عليه رؤيته المحدودة للموقف نتيجة لتأثره لقرون طويلة بالاستيطان، كما كانت القوى الأوروبية تتلاعب خلالها بالزعماء الأفارقة وممثلي المسئولين عن الاحتياطيات «وهي الأماكن المخصصة لسكن السود». ومنذ ذلك الحين، أصبح الهدف واضحًا وهو تحرير الوطن.

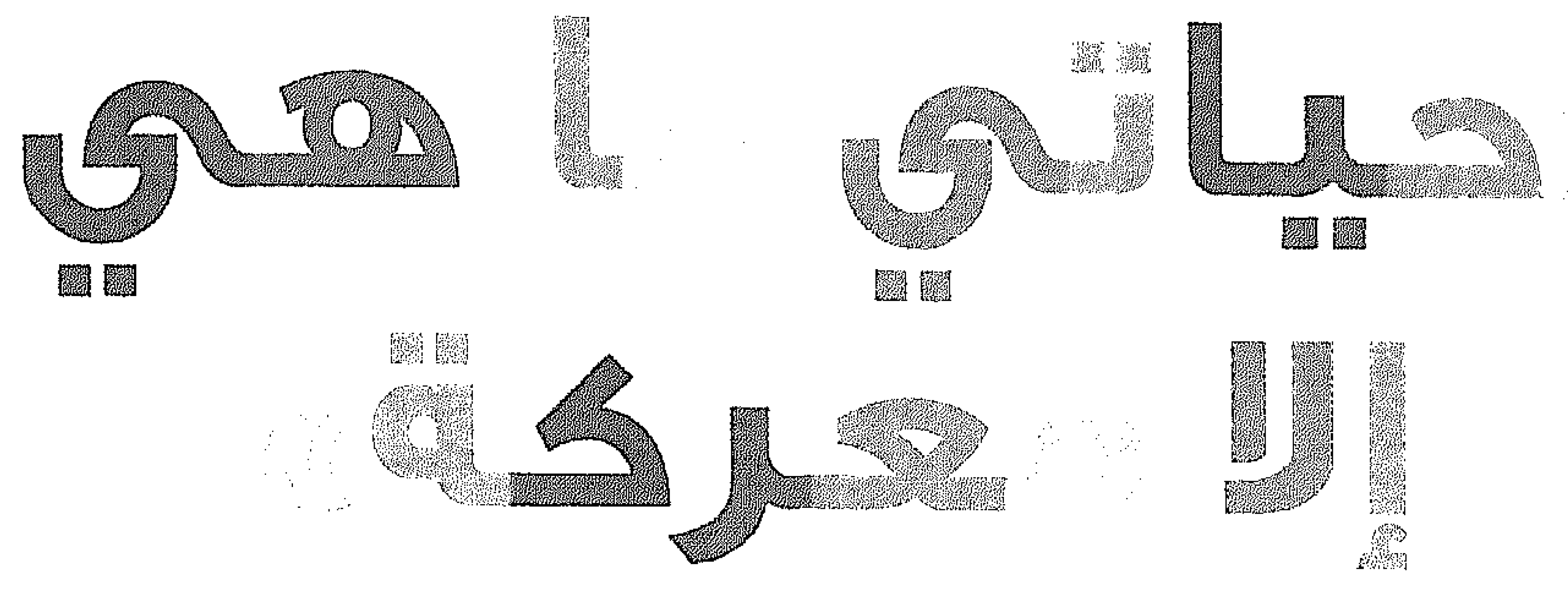
وبدأت المعركة الحقيقية في الأول من مايو 1950، حين نادى المؤتمر الوطني الأفريقي إلى إضراب عام. وبالرغم من الضغوط التي مارسها البيض، تغيب أكثر من نصف السكان السود عن العمل وقامت المظاهرات في أحياء السود. واندلعت المواجهات وقام رجال الشرطة بإطلاق النار على المتظاهرين، مما أسفر عن 19 قتيلًا و30 مصابًا. وكتب مانديلا عن هذه الحادثة: «كان هذا اليوم بمثابة نقطة تحول في حياتي لأني من جهة أدركت – عن طريق التجربة – وحشية الشرطة، ومن جهة أخرى تأثرت بشدة من طريقة السود في الاستجابة إلى نداء الإضراب العام في الأول من مايو».



في ظل نظام التمييز، كانت التفرقة العنصرية موجودة في كل المجالات حتى إنه في مدينة كيب تاون، كان على السود الصعود على سلالم غير التي يصعد عليها البيض.

قوانين التمييز

منذ وصول الحزب الوطني إلى الحكم في 1948، قام بتطبيق نظام التمييز العنصري بشكل رسمي. وكان الهدف من هذا النظام هو ضمان «تطور منفصل» لكل مجموعة عرقية في جنوب أفريقيا بدون أن تقوم واحدة منها باستغلال الأخرى، طبقًا لما ورد على لسان واضع تلك النظرية: الدكتور فيروورد. وفي حقيقة الأمر، قد تم إعداد نظام التمييز العنصري من أجل ضمان مصالح البيض بالرغم من كونهم أقلية في البلاد. وتبقى قوانين التمييز العنصري دليلًا على أكبر محاولة لتطبيق التفرقة العرقية على مدار التاريخ. ومن أهم هذه القوانين: قرار تسجيل السكان، والذي كان يقسم المجتمع إلى أربع مجموعات، وهم: البيض والسود والهنود والملونين. وهذا بالإضافة إلى قرار تقسيم المناطق الذي كان يحدد أماكن إقامة الأشخاص تبعًا لانتماءاتهم العرقية. كما قضى قرار الأخلاقيات بحظر الزواج والعلاقات الجنسية فيما بين مختلف الأعراق؛ وذلك حفاظًا على «نقاء الجنس الأبيض». وأخيرًا جاء قرار إلغاء الشيوعية ليسمح باعتقال كل من يعترض على التمييز العنصري.



مانديلا وتامبو محاميان



قام مانديلا بإنشاء مكتب المحاماة الخاص به في 1952 مع أوليفر تامبو.

منذ تلك اللحظة، كرس مانديلا حياته للمعركة السياسية. فكان غالبًا ما يتغيب عن منزله أو يرجع في وقت متأخر من الليل. وفي نهاية عام 1950، قرر قادة المؤتمر الوطني الأفريقي بالاتفاق مع زعماء المؤسسات الهندية، إطلاق حملة واسعة لتحدي قوانين التمييز العنصري.

ومن أجل ضمان نجاح الحملة، قام مسئولو رابطة الشباب بالتجول في جميع أنحاء البلاد، وطرق جميع الأبواب لشرح أهمية هذه الحركة للعمال والموظفين السود. وقد وصفها مانديلا فيما بعد قائلًا: «أيقظت تلك الحملة شعبنا ليتحول من مجتمع ذليل ومغلوب على أمره يجيب دائمًا بنعم، نعم، إلى مجموعة من المناضلين الشرسين الذين يحملون السلاح». وقبل إطلاق الحملة، قام كل من والتر سيزولو وچيمس موكورا رئيس المؤتمر بإرسال خطاب إلى رئيس الوزراء أملًا في الحصول على رد فعل إيجابي من جانبه. إلا أن الإجابة التي حصلا عليها كانت مخيِّبة لآمالهما حيث قال: «يجب أن يكون حاضرًا في ذهنكما أن الفروق بين البانتو والأوروبيين هي فروق أبدية وإنها ليست من ابتكار الإنسان».

أوليڤر تامبو

ولد أوليڤر تامبو في 1917 لعائلة من الفلاحين الفقراء. ونتيجة لتفوقه في المدرسة، حصل على منحة للدراسة في جامعة فورت هير المخصصة للسود حيث تعرف إلى نيلسون مانديلا. وأنشأ أوليڤر في عام 1943، رابطة شباب المؤتمر الوطني الأفريقي بالتعاون مع مانديلا ووالتر سيزولو، وفتح معهما بعد عشر سنوات أول مكتب محاماة للسود في جنوب أفريقيا. وفي عام 1958، أصبح نائبًا لرئيس المؤتمر الوطني الأفريقي. ونتيجة لسفره إلى خارج البلاد، استطاع أن ينجو بمعجزة من حادثة نهب مزرعة ريفونيا في عام 1964 (انظر ص 35). وبعد أن أصبح رئيسًا للمؤتمر الوطني الأفريقي، اضطر لقضاء أيامه في المنفى، ولم يعد إلى جنوب أفريقيا سوى في ديسمبر 1990. وتوفي في 24 أبريل 1993... قبل مُضيّ عام واحد فقط من إجراء أول انتخابات حرة.

وبدأت الحملة في 26 يونيو 1952. وعلى مدار شهور متواصلة، قام الآلاف من السود بخرق قوانين التمييز العنصري والدخول في أماكن كان محظورًا عليهم أن يضعوا فيها أقدامهم. ونتيجة لهذه الأفعال، أصبحوا مهددين بفقد وظائفهم ودخول السجن. ونجحت تلك الحملة نجاحًا واسعًا كان نتيجتها أنه تم اعتقال مانديلا في 30 يونيو، والحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة 9 أشهر إلا أن هذا الحكم لم يدخل حيِّز التنفيذ.

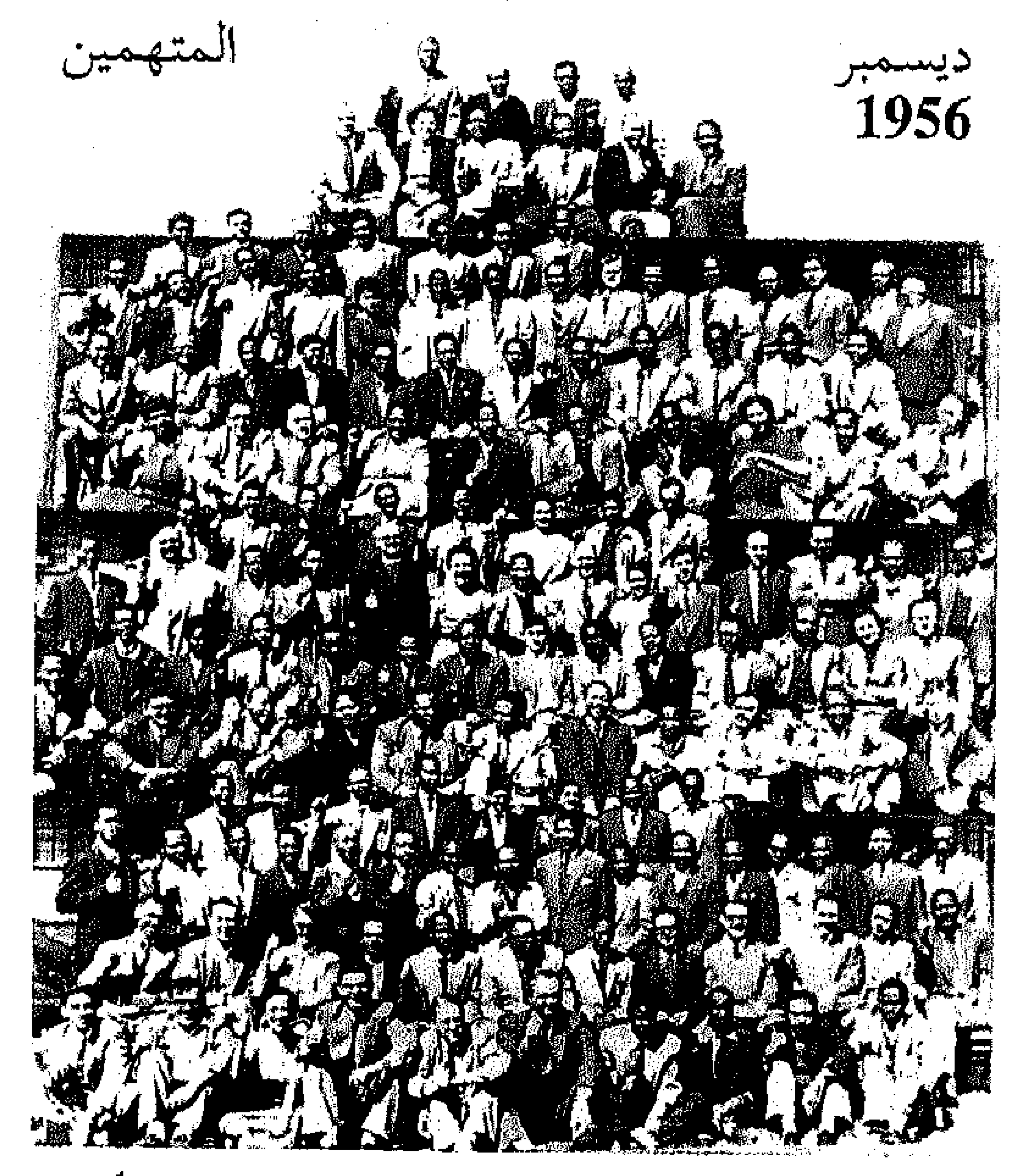
وفي نفس هذا العام، قام مانديلا مع أوليڤر تامبو بافتتاح أول مكتب لمحامين سود، واتخذ له مقرًا داخل مبنى يقع أمام محكمة چوهانسبرج. وسرعان ما انتشر عنوان المكتب بين جميع الأشخاص الذين يلاحقهم رجال الشرطة بسبب خرق قوانين العنصرية. وكان الصديقان يُضطران إلى اختراق جموع غفيرة كل يوم بداخل صالة الانتظار للوصول إلى مكتبهما. وكتب أوليڤر تامبو: «كانت كل زيارة نقومٍ بها إلى السجن، وكل حديث نجريه مع عملائنا يذكّرنا على الفور بالإهانة والقهر الذي يضطر أن يتحمله شعبنا». واستطرد بقوله: «لقد حولت قوانين التمييز العنصري العديد من الأبرياء إلى مجرمين».

وفي عام 1954، كانت حركة مكافحة التمييز العنصري قد بلغت من القوة ما يسمح لها بالإعداد للمستقبل. وقامت العديد من المنظمات التي تمثل شعوب جنوب أفريقيا بتشكيل مؤتمر الحركة الوطنية الذي يهدف إلى إعداد ميثاق الحرية. وكُتب هذا الميثاق باللغة الإنجليزية والأفريكانية والزوزا والزولو والسوتو. وكانت أكثر كلمتين ترددتا في الميثاق هما: «فلنتكلم» و«الحرية». وتم اعتماد الميثاق في 26 يونيو 1955 بكليپتون بالقرب من چوهانسبرج.



الخطة «م»

محاكمة الخيانة



فيما بين عامي 1956 و1961، تمت محاكمة 156 مناضلًا أبيض وأسود وملونًا ومن بينهم مانديلا، بتهمة مساندة ميثاق الحرية الذي ينادي بإقامة ديمقراطية لا عنصرية في جنوب أفريقيا.

منذ إطلاق حملة العصيان المدني، أدرك مسئولو المؤتمر الوطني الأفريقي بأن المقاومة السلمية لها حدودها. وفي 5 ديسمبر من عام 1955، وبعد مُضيِّ عدة أشهر من تحرير ميثاق الحرية، اعتُقل مانديلا في سويتو. ووُجِّهت إليه تهمة الخيانة العظمى التي يستحق عنها الإعدام هو ومعه 155 شخصًا آخرين.

وبدأت في الحال محاكمة دامت خمس سنوات. وتم إطلاق سراح مانديلا خلال الأيام الأولى، إلا إنه كان يقوم برحلات مكوكية شبه يومية من چوهانسبرج إلى پريتوريا (العاصمة الإدراية)، ليحول بذلك المحكمة إلى ساحة سياسية يعرض فيها أفكاره التي يوضح فيها إنه ليس ضد البيض ولكنه مع الحوار والاقتراع العام. كما أعلن عن عرضه بقبول ستين مقعدًا داخل البرلمان في مقابل وقف الحركة لمدة خمس سنوات. وبالطبع، لم تُبالِ الحكومة بهذه المبادرة بالرغم من أن محامي الدفاع جعلوا من المُدَّعي العام أضحوكة في أكثر من مرة. وتناقلت الصحف العالمية هذه الأخبار. وفي 29 مارس من عام 1961، قامت السلطات بوقف المحاكمة، وتم إعلان براءة مانديلا بالإضافة إلى الستة والعشرين متهمًا المتبقين. إلا أن مانديلا كان واعيًا إلى أن السلطات ستعتقله مرة أخرى في أول فرصة تُتاح لها. وكان البيض قد أصدروا قرارًا منذ عدة أشهر بإعلان جمهورية جنوب أفريقيا مستقلة، حيث لن تنتمي بعدها إلى الكومنولث: مجموعة البلاد التي كانت جزءًا من الإمبراطورية البريطانية القديمة.

وفي هذا الوقت، كثفت السلطات إجراءات قمع حركة مقاومة التمييز العنصري. وفي 21 مارس 1960، قام رجال الشرطة بفتح النار على متظاهرين سلميين في شارپڤيل، مما أسفر عن مقتل 69 شخصًا أُطلق عليهم الرصاص من الخلف! وتم إعلان حالة الطوارئ ومُنع العديد من المنظمات السياسية، ومنها المؤتمر الوطني الأفريقي، من ممارسة نشاطها.

وبدأ النضال الأسود في الخفاء. وقام المؤتمر بتطبيق الخطة «م» التي وضعها مانديلا في 1952، والتي تسمح للمنظمة بالعمل في الخفاء. وتشمل تلك الخطة عملًا سرِّيًا لحشد الجموع في كل

أحد أحياء السود

سويتو

خلال الخمسينيات من القرن العشرين، وتطبيقًا لنظام التمييز العنصري، تم تحويل أحياء بأكملها، كان يشغلها السود مع الملونين، إلى مناطق مخصصة للبيض. وتم طرد السود منها وإجبارهم إلى سُكْنَى أماكن معزولة خارج المدينة «يطلق عليها التاونشيپ». ومن أهم هذه الأماكن حيّ سويتو الذي كان يقع على بعد 15 كم جنوب غرب چوهانسبرج. وقد تحول حي سويتو إلى رمز لمقاومة التمييز العنصري في أعقاب الفتنة التي اندلعت في عام 1976. ومازال حي سويتو حتى اليوم من أكثر الأحياء فقرًا في جنوب أفريقيا.

مكان، في الشوارع والبيوت والمصانع والقطارات. وفي هذه الأثناء، أرسل مانديلا ثلاثة خطابات إلى رئيس الوزراء هندريك ڤيروورد – الذي أطلق عليه «مهندس التمييز العنصري» – واقترح عليه عقد اتفاق وطني، إلا أن محاولاته باءت بالفشل.

وكان انغماس مانديلا في قضية السود له تبعاته على حياته الشخصية. ففي عام 1956، انفصل عن زوجته الأولى، وبعد مضي سنتين، تزوج وهو في الأربعين من عمره من ويني التي كانت تبلغ 22 عامًا وتعمل مشرفة اجتماعية. وقالت ويني فيما بعد عن حياتها الزوجية المحدودة مع مانديلا نظرًا لانشغاله بالحياة السياسية: «إنها نعمت بأقل حياة زوجية بين السيدات المتزوجات». وأصبح النضال السياسي جزءًا من حياة مانديلا، ليشكلا معًا كيانًا واحدًا.


ويني ماندلا



السجن مدى الحياة

في يونيو من عام 1961، أقام المؤتمر الوطني الأفريقي اجتماعًا سريًا، أدرك خلاله القادة المأزق الذي تسبب فيه اختيار النضال السلمي. وعليه قرروا تشكيل المنظمة العسكرية «أومكونتو وي سيزوي» التي تعني «حربة الأمة» بلغة الزولو. وأصبح مانديلا هو رئيس تلك المنظمة.

واتخذ الزعيم الأسود ملجأ له في عزبة ليليزليف في ريڤونيا، وهي ضاحية ريفية تقع شمال چوهانسبرج. وهنا قام المناضلون بجمع المعلومات عن جيوش التحرير من الاستعمار حول العالم وعن كيفية تصنيع المتفجرات. وانطلق دَوِيّ أول قنابل سوداء في 16 ديسمبر 1961، وهو التاريخ الذي يرمز إلى انتصار البوير الساحق على الزولو، في موقعة نهر الدم، في عام 1838. وبعد عدة أسابيع، شارك مانديلا في مؤتمر الشعوب الأفريقية المتحدة للحرية المنعقد في إثيوپيا. وتبع ذلك جولة امتدت لخمسة أشهر لتشمل كل بلاد أفريقيا وأوروبا وذلك لطلب العون. وقابل خلالها عددًا من رؤساء الدول وحصل على تدريب عسكري بالجزائر. وقال مانديلا: «أينما ذهبت، عاملوني كإنسان». وعاد سرًا إلى جنوب أفريقيا في يونيو من عام 1962. إلا أن

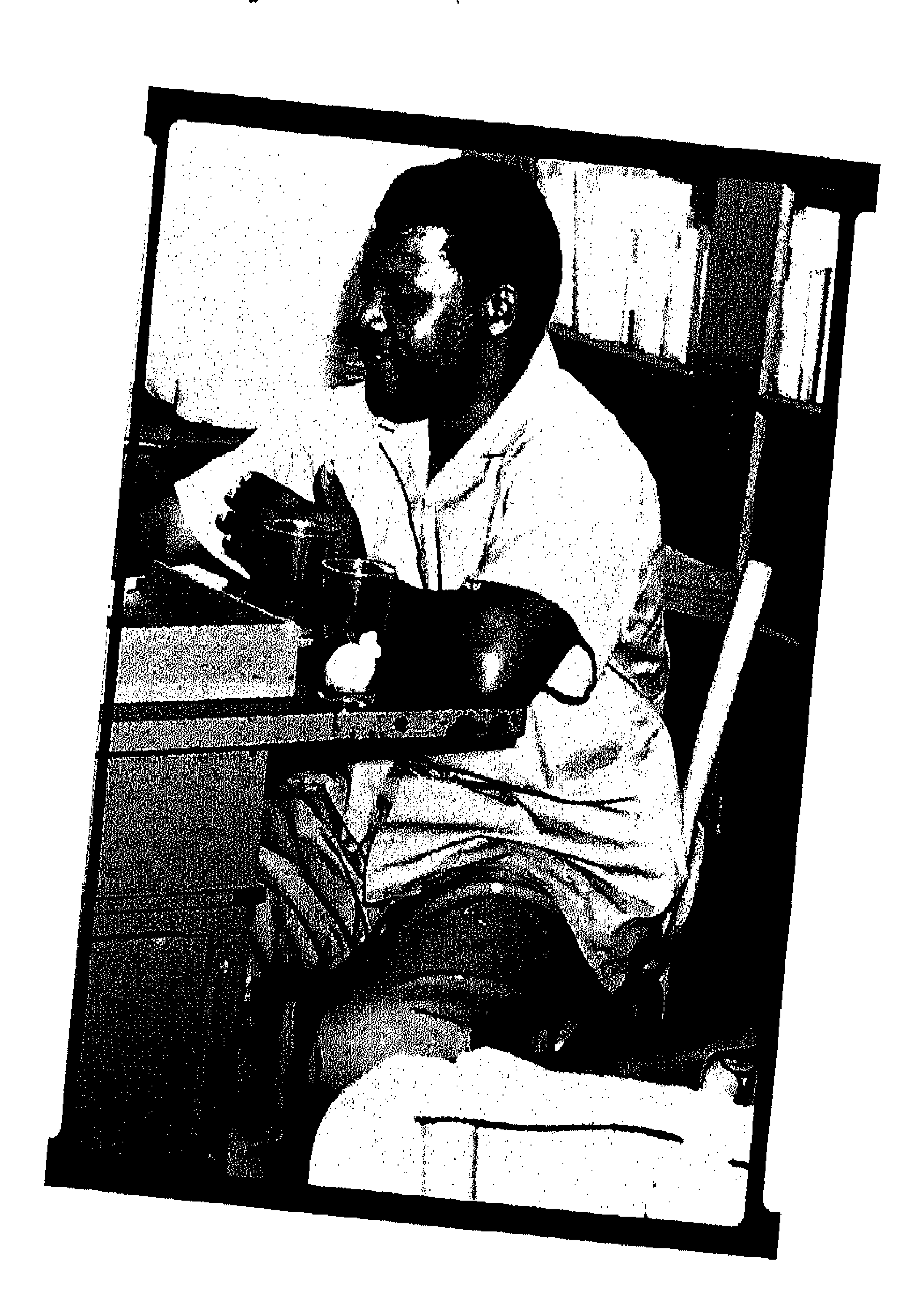
لعبة «المسّاكة» لم تدم طويلًا وألقى رجال الشرطة القبض عليه في 5 أغسطس. ومرة أخرى، اتخذ الزعيم الأسود من محاكمته فرصة للتنديد بالتفرقة العنصرية. وفي 7 نوفمبر، صدر عليه حُكمٌ بالسجن لمدة خمس سنوات.

وفي 12 يوليو1963، قام رجال الشرطة بالهجوم المباغت على المزرعة التي اتخذها المؤتمر مقرًا له. وتم اعتقال العديد من الأشخاص ومن بينهم والتر سيزولو. ووضعوا أيديهم على المئات من الوثائق التي تدين مانديلا مباشرة في أعمال التخريب التي تسببت فيها منظمة أومكونتو وي سيزوي. وبدأت، يوم 9 أكتوبر، محاكمة تاريخية عُرفت باسم «ريڤونيا». وكانت الاتهامات الرئيسة التي وجِّهت إلى مانديلا هي: التخريب والمؤامرة الثورية ومساندة هجوم خارجي. ونادى مانديلا مرة أخرى بالاعتراف بكرامة السود. وأنهى دفاعه بهذه الكلمات: «لقد كرست كل حياتي لنضال الشعب الأفريقي. ولقد قاومت التسلط الأبيض وكذلك التسلط الأسود. وكان حلمي الأكبر هو قيام مجتمع حر ديمقراطي يتعايش فيه الجميع ويحصلون على فرص متساوية. إني آمل أن أعيش طويلًا حتى أبلغ هذا الحلم. وإني على استعداد للتضحية بحياتي إذا تطلّب الأمر».

وفي 12 يونيو 1964، أصدرت المحكمة على مانديلا ومعه سبعة آخرون حكمًا بالسجن مدى الحياة. ورفع مانديلا قبضته وسدد الإبهام (على طريقة سلام المؤتمر الوطني الأفريقي) ورجع إلى زنزانته للمرة الأخيرة.

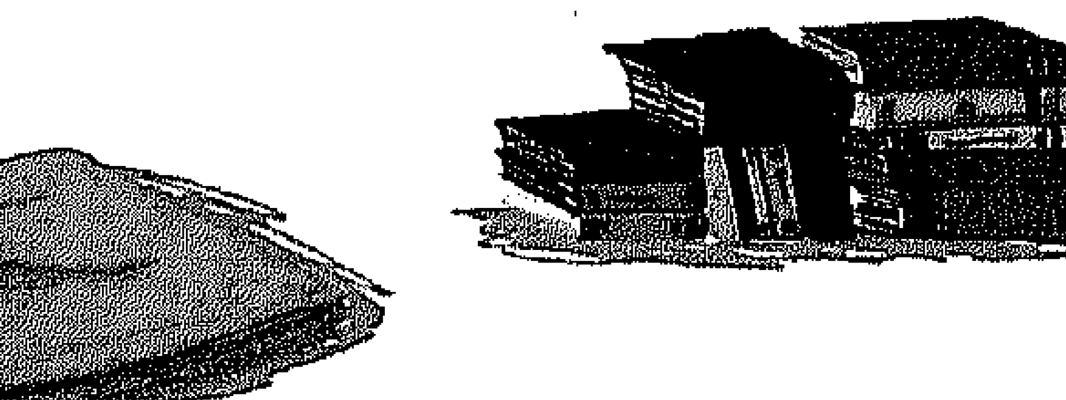
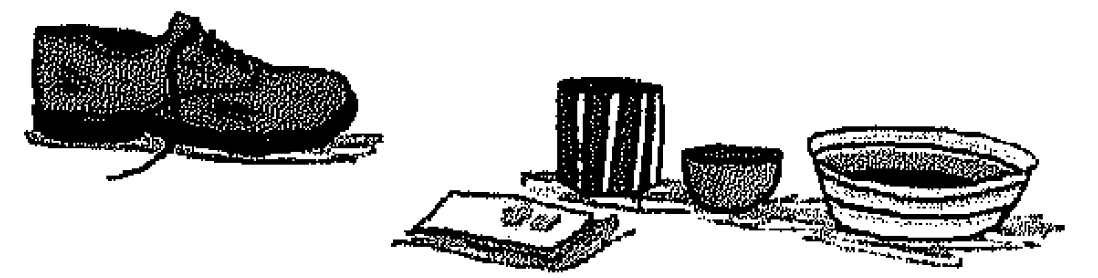
قلة بيضاء ضد التمييز العنصري

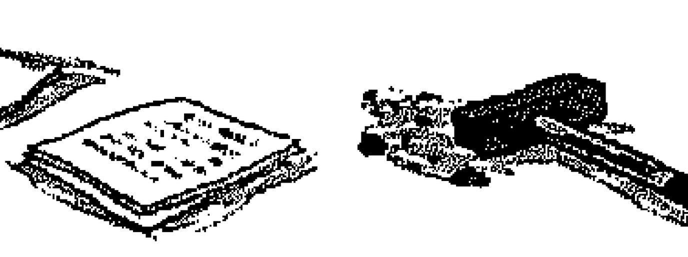
بالرغم من مناصرة الأغلبية العظمى للتميز العنصري في جنوب أفريقيا، إلا أنه كان هناك قلة بيضاء ضد هذا النظام ومنهم على الأخص الأحرار الذين يمثلهم الحزب التقدمي الذي أنشئ في عام 1959. وكان معظم أعضاء هذا الحزب من الطبقات الأنجلوفونية البيضاء، وهم من مؤيدي ميثاق الحقوق والإصلاحات الدستورية. وبالرغم من أن الحزب التقدمي كان يشغل مقاعد محدودة داخل البرلمان، إلا أنه كان يندد بأعمال العنف التي يقوم بها النظام الحاكم ويؤيد مبدأ «رجل واحد، صوت واحد». غير أن الحركات السوداء لم تكن مقتنعة بجدوى الحزب داخل البرلمان الأبيض. وخلال 1970-1980، قام الحزب التقدمي بالاندماج مع بعض أحزاب المعارضة. وخلال التسعينيات من القرن العشرين، لعبت المعارضة دورًا غاية في الأهمية في المفاوضات الدستورية لخروج جنوب أفريقيا من نظام التمييز العنصري.



في عام 1962، مانديلا يرحل سرًا من جنوب أفريقيا لحضور مؤتمر الشعوب الأفريقية المتحدة للحرية المنعقد في أديس أبابا بإثيوبيا.

سجن روبن آيلاند



أُخرج المساجين من مبنى المحكمة وكل اثنين مقيَّدان معًا، ثم دُفعوا داخل شاحنة لتصحبهم إلى سجن روبن آيلاند (جزيرة روبن) الواقع في عرض البحر والذي تطل عليه مدينة كيپ تاون، على بعد 1500 كم من چوهانسبرج. وكان الغرض من اختيار هذا السجن المنعزل هو دفن مانديلا وأعوانه أحياءً. وبدأ السجين رقم 466/64 (مانديلا) حياة العزلة. أثناء النهار، كان يقوم بكسر الأحجار. وفي الليل، ينام في زنزانة مربعة مساحتها 2,5 متر مربع فقط، ويضيئها مصباح كهربائي قوته 40 واط. أما وجبة طعامه كل يوم فكانت الذرة المسلوقة ورقبة فرخة مرة واحدة في الأسبوع. أما عن الخطابات والزيارات، فله الحق فيهما مرة واحدة كل ستة أشهر.

وبالرغم من هذا، لم يستسلم مانديلا. وفي عام 1969، كتب إلى وزير العدل طالبًا منه الإفراج العاجل وغير المشروط عن كل السجناء السياسيين، ومؤكدًا أنه لا يطلب عفوًا وأن قناعاته لم تتغير البتَّة. وكانت نبرة السجين واعتزازه بنفسه الواضحان في الخطاب أمرًا لا يُصدق. وأشارت طلباته الخاصة بمجموعة ريڤونيا، إلى ظروف حبسهم التي تحسنت بصورة طفيفة على مدار السنين.

وفي بداية السبعينيات، حصل مانديلا على مائدة ومقعد داخل زنزانته، وعلى الحق في غطاء ليقيَه من البرد، وفي ماء ساخن ليغتسل.

في 1976، أسفرت الثورة في سويتو عن آلاف القتلى في معسكر السود. واستحق المصور چان همان جائزة خاصة لالتقاط صورة الصبيين أمام رجل الشرطة.

وبعيدًا عن السجن، كانت الأحوال في البلاد في تدهور مستمر. وفي يونيو 1976، قام تلاميذ المدارس بالتظاهر في سويتو ضد قرار يفرض لغة الأفريكانز بالمناهج التعليمية. ووصلت الأرقام الرسمية لنتائج الاشتباكات مع رجال الشرطة إلى 618 قتيلًا و1500 جريح. وفي الواقع، زاد عدد الوفيات على ألف شخص لم يتعدَّ عمرهم الثمانية عشر عامًا. وامتدت المظاهرات إلى مدن سوداء أخرى. وفي المقابل، قام الجيش بحشد قواه في جميع أنحاء البلاد. وكانت إجراءات القمع غاية في الشدة. وفي مايو1977، تم اعتقال ويني مانديلا بتهمة إعادة تشكيل المؤتمر الوطني الأفريقي ونُفيت إلى دولة أورانج الحرة. ومن ناحية أخرى، بدأ المجتمع الدولي الذي كان لا يبالي بالمأساة حتى هذه اللحظة، في توجيه النقد واللوم إلى النظام العنصري.

وبالرغم من شعور مانديلا بالعجز داخل السجن، إلا أنه واصل الحديث السياسي مع رفاقه واستمر في ممارسة مهنته كمحامٍ عن طريق مساعدة المسجونين في كتابة الخطابات إلى محاميهم.

ونجح مانديلا في تسريب رسالة إلى العالم الخارجي وكان فحواها الدعوة إلى توحيد صفوف مقاومة التمييز العنصري وتكثيف النضال. وفي واقع الأمر، فشلت السلطة في محاولتها محو ذكرى القائد من قلوب الشعب الأسود. وباتت سمعته في ازدهار مستمر. وأصبح قضاء فترة عقوبة داخل سجن روبن آيلاند الذي صار يُطلق عليه «جامعة مانديلا»، بمثابة وسام شرف لكل من يناله من أفراد المجتمع الأفريقي.

يوم داخل سجن روبن آيلاند فيما بين عامَيْ 1974 و1976

يصحو السجناء من النوم في تمام الساعة الخامسة صباحًا في الصيف، وفي السادسة صباحًا في الشتاء. ثم يتبع ذلك الاغتسال لمدة نصف ساعة، وهي فترة غير كافية لأن كل ثلاثين شخصًا لديهم فقط أربعة أحواض للاغتسال، وخاصة أنه كان من المفروض عليهم الحلاقة يوميًا. وكان طعام الإفطار يوضع بالقرب من الباب داخل برميل. ويقوم المسجونون بغَرْف الطعام لأنفسهم. وبعد مرور ساعة من موعد الصحيان، يتوجه السجناء إلى العمل الذي يتوقف من الساعة الثالثة إلى الرابعة لتناول الغداء. وفي تمام الساعة الخامسة، يرجع المسجونون إلى الزنزانة وينامون في الساعة الثامنة، فيما عدا هؤلاء الذين كان لديهم تصريح بالاستذكار حتى الساعة العاشرة. وتُترك الأنوار مضاءة، غير أنه ليس للمسجونين الحق في القراءة بعد الأوقات المحددة.


سجن روبن آيلاند

لتمييز العنصري:

في 1982، تم نقل مانديلا وأعوانه إلى سجن بولسمور الواقع على أطراف مدينة كيب تاون. وكانت ظروف المعيشة أفضل داخل هذا المعتقل الرئيس عالي التأمين. فحظى مانديلا ببستانه الخاص حيث قام بزراعة الخضراوات بداخل دستتين من الصفائح الصغيرة. وفي عام 1984، سُمح له بأن يعانق زوجته لأول مرة منذ اثنين وعشرين عامًا!

وفي يناير من نفس العام، اضطُر مانديلا لإجراء عملية جراحية. وارتعبت الحكومة من فكرة وفاة أقدم سجين سياسي وراء قضبان السجن وما يمكن أن يستتبعه ذلك، فعرض رئيس الجمهورية بيتر بوتا، في يناير 1985 أن يطلق سراح مانديلا في مقابل نفيه إلى إقليم ترانسكاي ونبذه للعنف. وبثباته المعتاد، رد مانديلا في خطاب قرأته ابنته زيندزي في استاد سويتو في 10 فبراير، قائلًا: «إن الحرية أمر لا يُسَاوَمُ عليه. ولا يستطيع التفاوض سوى رجل حر. وإني لا أستطيع ولا أريد أن أقطع على نفسي عهدًا في وقت لسنا فيه أحرارًا، أنا وأنتم كشعب، ولا فرق بين حريتكم وحريتي». وكانت الرسالة واضحة: إذا أرادت الحكومة تطوير الأوضاع، فعليها أولًا تغيير مواقفها.



طريق مسدود

وبالفعل، بدأ مانديلا بعض المحادثات السرية في هذه الفترة. ووجدت الحكومة نفسها في مواجهة وضع داخلي للبلاد غاية في الصعوبة، بالإضافة إلى الانتقادات العالمية، مما جعلها تدرك بعد عقود طويلة من الرفض أن طريق المفاوضات بات هو الحل الوحيد المتاح. وعلى مدار سنوات، ازدادت الاجتماعات واستطاع خلالها أن يتعرف طرفا الصراع إلى بعضهما البعض.

وتسارعت الحركة بوصول فريدريك دي كليرك إلى الحكم في أغسطس 1989. وكان رجلًا ذكيًا يعلم أن عليه مواصلة التقدم في الطريق المفتوح أمامه. وبعد شهر واحد من وصوله إلى السلطة، قام الرئيس الجديد بإطلاق سراح ثمانية مساجين سياسيين من أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي، من بينهم والتر سيزولو. وفي 2 فبراير، تم التصريح للمؤتمر الوطني الأفريقي بمزاولة نشاطه، وكذلك عدد من المنظمات السياسية. ثم بعد تسعة أيام، خرج نيلسون مانديلا من السجن. وأمام جموع غفيرة، ظهر مانديلا لأول مرة بعد قضاء 27 عامًا وراء القضبان. وها هو وقد تحول شعر رأسه إلى اللون الأبيض. وابتسم ولوّح بيده للجماهير بعلامة النصر. وكانت أول كلمات ينطق بها تبدو كأنها كلمات تصدر من رئيس دولة. فأكد للأطراف الراديكالية من الجانب الأبيض وأمثالهم من الجانب الأسود: «سنصل إلى الحل الأمثل الذي يناسب البيض والسود على حد سواء، وذلك من أجل مستقبل هذه البلاد». وهكذا، انطوت صفحة في تاريخ جنوب أفريقيا.

فريدريك دي كليرك

وُلد فريدريك دي كليرك في عام 1936، لأسرة ذات انتماء قوي إلى الحزب الوطني. وكانت أولى المسئوليات التي تولاها دي كليرك في حياته في اتحاد الطلاب الأفريكان، الذي كان يُعدّ بوتقة قادة البلاد المستقبليين. وتولى منصب وزير في 1978، ثم عُيّن رئيسًا للجمهورية في 1989. وبالرغم من كونه أحد المؤمنين بنظام التمييز العنصري، إلا أنه استوعب أن بلاده أمام طريق مسدود. وعليه، قام بالتفاوض مع مانديلا. وفي أعقاب الانتخابات العمومية التي نجح فيها المؤتمر الوطني الأفريقي في 1994، أصبح دي كليرك أحد نائبي الرئيس. واستقال في 1996، وأنهى بذلك مشاركة الحزب الوطني في المهام الحكومية. اعتزل فريدريك دي كليرك الحياة السياسية في 1997.



نيلسون مانديلا وفريدريك دي كليرك معًا يوم التوقيع على اتفاقية السلام في 14 سبتمبر 1991.



أحد الملصقات الدعائية للحملة الرئاسية في 1994، ورسالتها تقول: صوتوا من أجل الوظائف، والسلام، والحرية.

سيدي الرئيس...

كان السود الذين هتفوا لمانديلا عند خروجه من السجن، يرون أنه هو الرئيس الشرعي لدولة جنوب أفريقيا. وعلى أساس هذا التصور، قام نيلسون بقيادة المفاوضات المفتوحة مع الحكومة القائمة للإعداد لفترة ما بعد التمييز العنصري. وكان لا يزال يتمتع بقوة الشخصية وبقدرة جسمانية هائلة. وقام مانديلا بالتفاوض على كل نقطة بالاتفاقية، ونجح في إيجاد الوسيلة الأمثل لإرضاء كل من البيض والعناصر الراديكالية من السود. وكانت لديه شعبية كبيرة، فكان يستطيع من خلال نظرة أو حركة بيده أن يهدِّئ الجماهير الغاضبة. وظل مانديلا دائمًا متمسكًا بمبدئه: «رجل واحد، صوت واحد»، إيمانًا منه بأنه الوسيلة الوحيدة لوضع جنوب أفريقيا على طريق الديمقراطية.

وكانت العلاقات بين الزعيم الأسود والرئيس فريديريك دي كليرك، يشوبها بعض الخلافات. وقد أوضح مانديلا الأمر في 1992 قائلًا: «يجب على رئيس البلاد، حتى ولو فقد ثقة نظام أقلية غير شرعية، أن يبقى مخلصًا لبعض القيَم الأخلاقية». وأخيرًا، استطاع عَدُوَّا الأمس التغلب على كل المصاعب، وتفهُّم ضرورة إقامة علاقة وطيدة أساسها العقل. وتقديرًا لبُعْد نظرهما الذي جَنَّبَ جنوب أفريقيا أنهارًا من الدماء، استحق كل من نيلسون مانديلا وفريديريك دي كليرك –معًا– جائزة نوبل للسلام في 1993.

وفي 27 أبريل 1994، خرج شعب جنوب أفريقيا للاقتراع لأول مرة في انتخابات متعددة الأجناس.

وفي جو يسوده السلام، تم تنصيب مانديلا رئيسًا لجمهورية تقوم على الوحدة الوطنية. وفي 8 مايو 1995، تم إعلان تطبيق دستور جديد يطوي صفحة التميز العنصري ويرتكز على الديمقراطية. وفي أكتوبر من نفس العام، تم تكريم مانديلا حيث هتف له الجميع لمدة أربع دقائق متواصلة داخل مقر الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمدينة نيويورك.

وهكذا، نجح مانديلا في أن يضع بلاده على طريق المصالحة مع الحفاظ على وحدتها. ولكن ماذا كان الثمن الذي دفعه؟ فبعد سنين طويلة من الصراع السياسي والبعد، قرر مانديلا الانفصال عن زوجته الثانية ويني. وأصدرت المحكمة حكمًا بطلاقهما في 1996. وعلق بقوله وهو ما زال داخل المحكمة: «لم أشعر في حياتي بمثل الوحدة التي شعرت بها خلال السنوات التي قضيتها معها بعد خروجي من السجن». وشعر مانديلا بالندم لأنه اضطر إلى التضحية بدوره كزوج وأب. وكتب في مذكراته: «كان من الصعب تجاهل احتياجات شعب جنوب أفريقيا حتى ولو كان هذا على حساب عائلتي الصغيرة».

جائزة نوبل للسلام

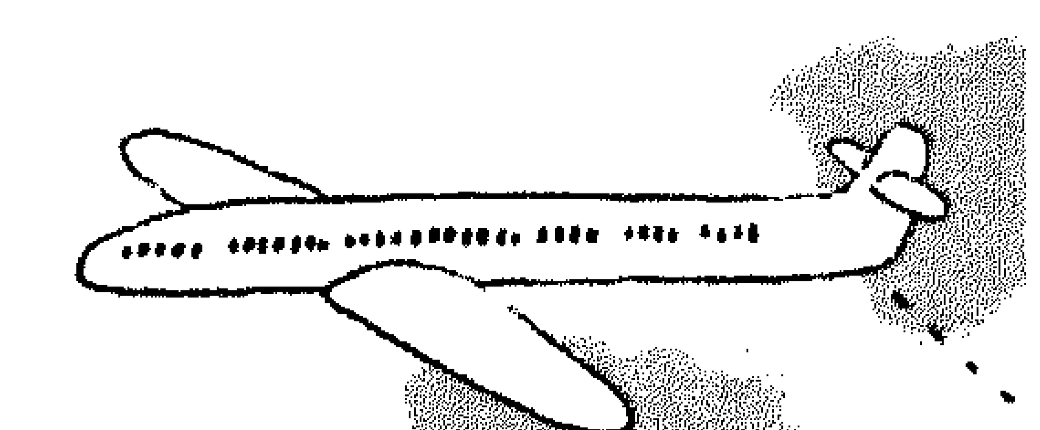
في كل عام، تُمنح جائزة نوبل للسلام «للشخصية التي ساهمت بأكبر قدر أو بأفضل وسيلة في تقارب الشعوب، وإلغاء أو تخفيض الجيوش الموجودة بصورة دائمة، وكذلك في توحيد ودعم التقدم في مسيرة السلام»، وذلك بناء على رغبة صاحب هذه الجائزة ألفريد نوبل. وتُمنح هذه الجائزة لشخص، أو لعدة أشخاص، وكذلك لمؤسسات (مثل منظمة أطباء بلا حدود في عام 1999). ولتلك الجائزة أهمية سياسية كبيرة حيث إنها تسمح للمناضلين من أجل الحرية والمقهورين داخل بلادهم بالحصول على فرصة التعرف إليهم على المستوى الدولي.
ومن بين من حصلوا على جائزة نوبل للسلام: مارتن لوثر كينج (الولايات المتحدة)، في 1964، من أجل حملته للدفاع عن حقوق السود الأمريكيين، والرئيس المصري محمد أنور السادات ومعه مناحم بيجن (إسرائيل) في 1978 من أجل سعيهم لإقامة السلام، وكل من ياسر عرفات (فلسطين) وشيمون بيريز وإسحاق رابين (إسرائيل)، في 1994، من أجل سعيهم في مفاوضات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

الحقيقة والتصالح

في 1993، وتحت رئاسة رئيس أساقفة جوهانسبرج، القس ديسموند توتو، الحاصل على جائزة نوبل للسلام في 1984، قامت جنوب أفريقيا بتكوين لجان الحقيقة والمصالحة. وكان الهدف منها هو منح «العفو» للأشخاص الذين يأتون «للاعتراف» بالجرائم التي ارتكبوها في ظل نظام التمييز العنصري، بشرط ألا يغفلوا أيًا من هذه الجرائم وأن يكونوا قد تصرفوا فيها بناء على أوامر رؤسائهم، إيمانًا بأنهم كانوا يعملون لخدمة هدف سياسي (مثل الدفاع عن العِرْق الأبيض). وبعد الانتهاء من التحقيقات، عُقدت جلسات الاستماع فيما بين عامي 1996 و1998. وكان من شأنها السماح لبعض مرتكبي الجرائم طلب العفو من ضحاياهم، وذلك من أجل التصالح بين مجتمعَي البيض والسود.


نيلسون مانديلا والقس توتو

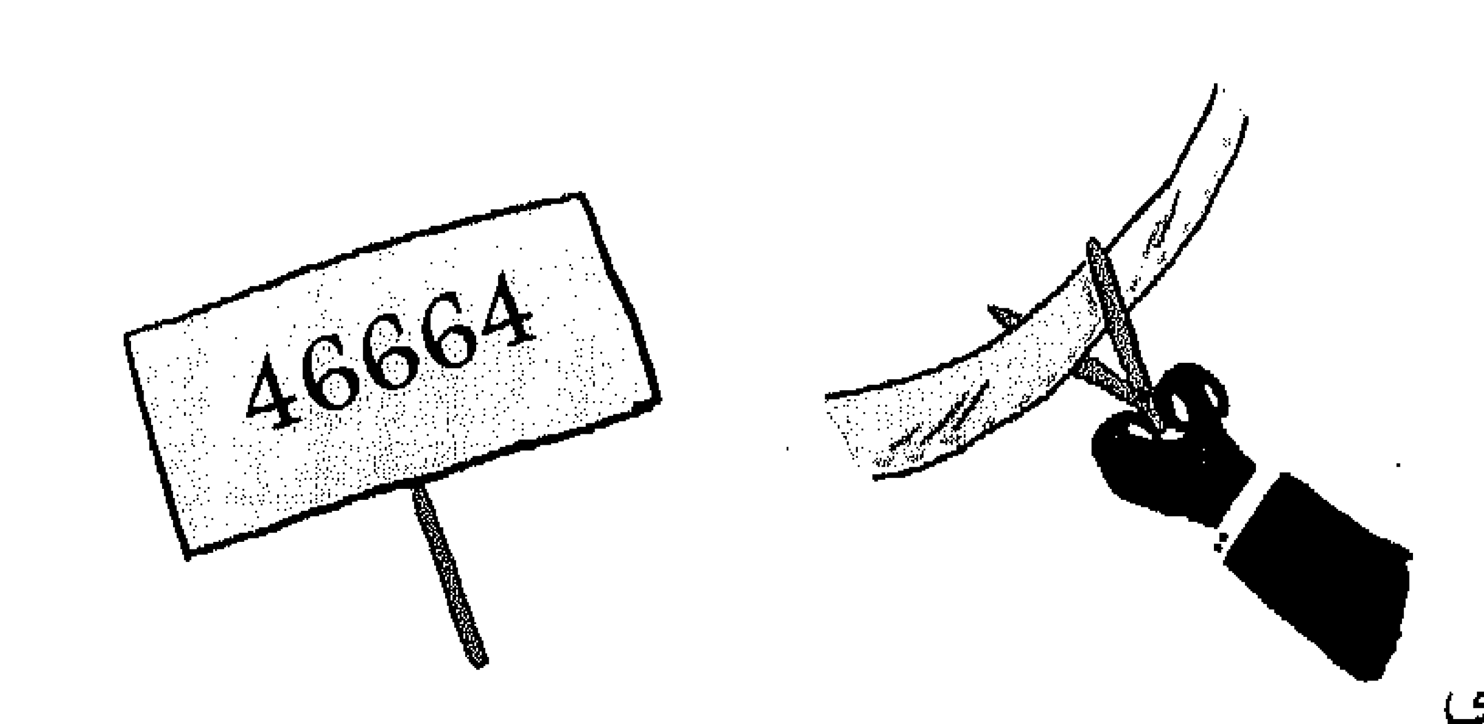
متقاعد غاية في النشاط





كان مانديلا دائمًا متواجدًا على جميع الجبهات. وفي هذه الصورة، نراه في زيارة لمدرسة الملك إدوارد السابع بجوهانسبرج في إطار سياسته التعليمية.

بعد أن أمضى خمس سنوات في رئاسة جنوب أفريقيا، قام خلالها بتطبيق سياسة الحرص والتسوية والتصالح، قرر مانديلا أن يسلم الراية لوريثه تابو مبيكي. وأعلن إلى الصحافة: «لقد قمت بدوري ولا أطلب سوى أن أتقاعد وأُنتسى في الظلام. أريد أن أرجع إلى قريتي وأمشي على الهضاب التي كنت ألعب عليها في طفولتي. لا أريد أن أبلغ المائة عامٍ وأنا مازلت أحاول أن أسوِّي الخلافات حول العالم». وكان الرئيس مانديلا قد أصابه الوَهَن، فضعف سمعه وأصبح يضع سماعات في أذنه. كما ضعف نظره بعد سنوات سجنه الطويلة، وكان يمشي بصعوبة. لكن يجب ألَّا ننخدع بالأمر، فمازال مانديلا حتى اليوم يعيش حياة إيقاعها سريع. هذا، لأنه لا يستطيع أن يرفض مئات الطلبات التي تصل إليه يوميًا لحضور افتتاح مدرسة أو حفلة تذكارية رسمية أو رحلة إلى الخارج. . .





وهكذا، لم يستطع هذا المتقاعد العجوز أن يلزم مكانًا واحدًا حتى أصبح الحديث المعتاد عن تقاعده مثارًا للفكاهة في جنوب أفريقيا. ويستمر مانديلا في نضاله من أجل احترام حقوق الإنسان من خلال ثلاث مؤسسات خيرية تعمل من أجل الطفولة والذاكرة والتدريب الأخلاقي للقادة الجدد.

وفي 2003، بدأ مانديلا نضالًا جديدًا عندما أطلق حملة عنوانها «46664»، وكان هذا هو الرقم الذي كان يحمله عندما كان سجينًا. وتهدف تلك الحملة لجمع التبرعات لمكافحة مرض الإيدز الذي يعاني منه عشرات الملايين الأشخاص في أفريقيا. وفي هذا الإطار، أعلن الرئيس السابق في 6 يناير 2005، وفاة ابنه ماكجاتو عن عمر يناهز الرابعة والخمسين متأثرًا بهذا المرض.

وفي الأول من نوفمبر 2006، عُين الثوري العجوز سفيرًا للضمير بمنظمة العفو الدولية. وبهذه المناسبة، ذَكَّرَ مرة أخرى قائلًا: «إن الفقر مثله مثل العبودية والتمييز العنصري أمر غير طبيعي. إن الإنسان هو من يصنع الفقر ويقبل بالتعايش معه، والإنسان هو نفسه من سيقهره. إن القضاء على الفقر لا يُعد عملًا خيريًا بل هو أحد متطلبات العدالة، لأنه ينطوي على حماية حقوق الإنسان الأساسية. ولكل إنسان حول العالم الحق في العيش بكرامة، بدون خوف أو قهر أو جوع أو عطش، وأن يتمتع بحرية التعبير والانتماء لأي مؤسسة». ويبدو أن روليلالا لن يهدأ له بال حتى يحقق هذا الحلم حتى ولو لاحقه إلى آخر نَفَس في حياته.



الأمة «قوس قُزَح»

أُطلق على جنوب أفريقيا «أمة قوس قُزَح» نتيجة لتعدد الأجناس المكونة لسكانها. ويمثل الأفارقة الأصليون حوالي 75% من السكان. ثم تتبعهم الأقلية البيضاء بنسبة 11% والملونون 8.9% والهنود 2.6%. ويقر الدستور بوجود إحدى عشرة لغة رسمية: الأفريكانز والإنجليزية والنديبلي والبيدي والسوتو والسوازي والتسونجا والتسوانا والفندا والزوزا والزولو.

«لن يصل أيٌ منا إلى النجاح، إذا كافح وحده»

من الكلمة التي ألقاها عند توليه الرئاسة في 10 مايو 1994

جنوب أفريقيا وتحديات اليوم

بالرغم من نهاية التمييز العنصري، إلا أن هناك عثرات صعبة تهدد جنوب أفريقيا. فالبلاد تعاني أشكالاً جديدة من عدم المساواة الاجتماعية، ومن ارتفاع معدل الجريمة بصورة مفزعة، ومن تبعات وباء الإيدز.

عدم المساواة الاجتماعية:

تُعد جنوب أفريقيا من أقوى دول القارة الأفريقية. وتشهد حاليًا نموًا كبيرًا بعد التحرر من التمييز العنصري. إلا أن عدم المساواة الاجتماعية يلقي بظلاله على فئات المجتمع. وفي محاولة من الحكومة لتضييق الهُوَّة التي تفصل بين البيض والسود داخل المجتمع، قامت منذ 1994 بتطبيق سياسة يُطلق عليها التفرقة الإيجابية، فعلى سبيل المثال، لإتاحة فرص أفضل للعمل للسود، تم تقديم عروض مادية مغرية للبيض للاستقالة من وظائفهم. وكذلك قامت بعض البنوك والمجموعات الكبيرة التي تعمل في مجال المناجم، بالتنازل عن نسبة تتراوح ما بين 10 إلى 35% من أسهمها للسود والهنود والملونين. وهكذا، بدأت في الظهور مجموعة صغيرة من الصفوة السوداء من بين صفوف أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي، اتجهت إلى مجال الأعمال واستطاعت تكوين ثروات كبيرة. وبجانب تلك الصفوة، ظهرت طبقة السود المتوسطة. أما عن البيض الذين كانوا يقعون تحت حماية نظام التمييز العنصري، فظهرت بينهم طبقة من المحتاجين، إلا أن السود هم الذين يشكلون النسبة الأكبر من الطبقة الفقيرة. واليوم، يعيش حوالي 48% من السكان بأقل من دولارين يوميًا. ومن جهة أخرى، قام 16% من البيض الأكثر كفاءة بالهجرة من البلاد خلال الفترة من 1995 إلى 2005. واضطرت الحكومة إلى تعديل سياستها لجذب تلك الطبقة وإعادتهم إلى جنوب أفريقيا.

جنوب أفريقيا

المساحة: 1 200 000 كم^2.

السكان: 46.9 مليون نسمة.

العاصمة: بريتوريا (مقر الحكومة) وكيب تاون (مقر البرلمان).

النظام السياسي: ديمقراطية متعددة الأجناس ونظام رئاسي.

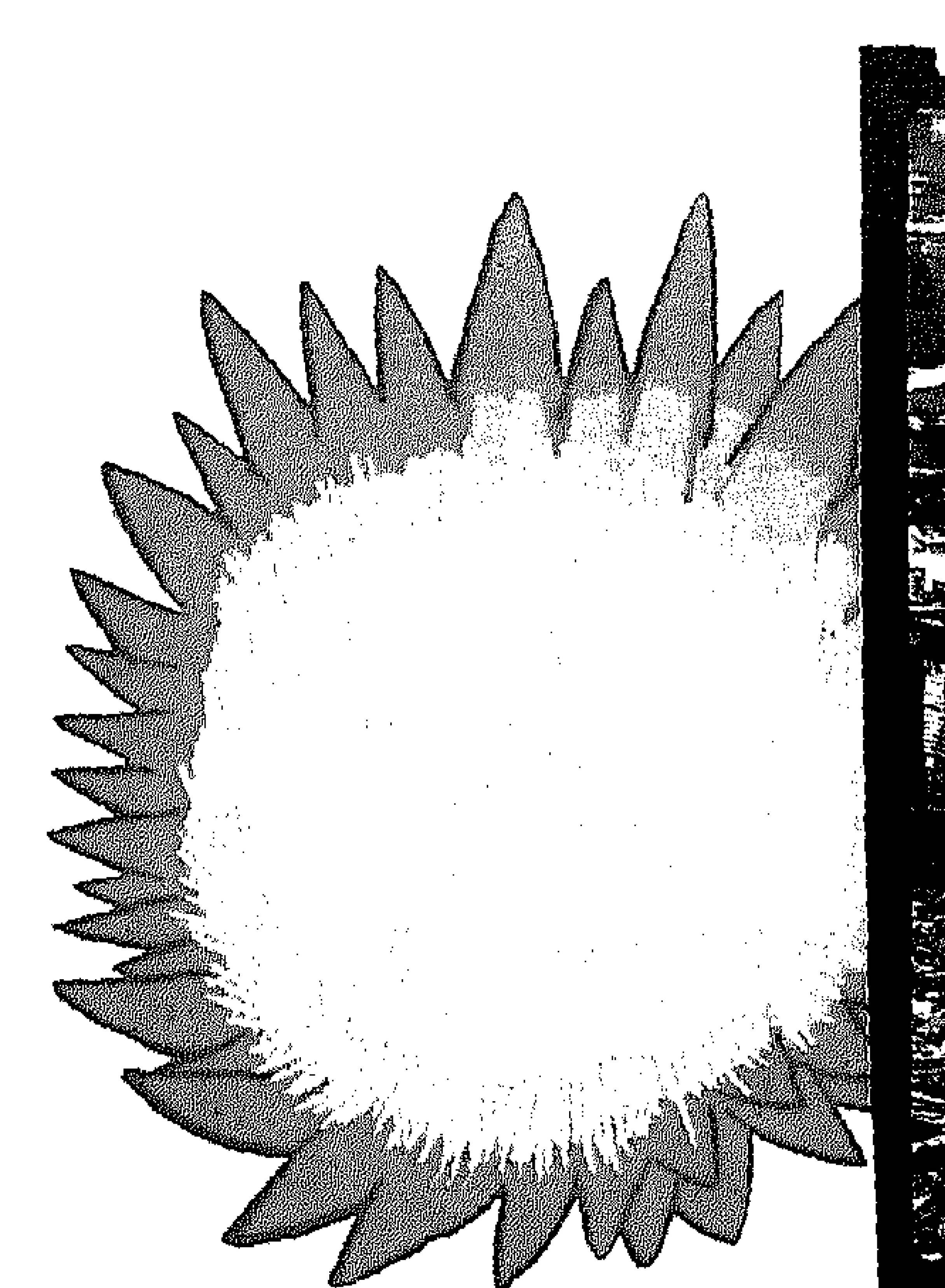
رئيس الجمهورية: جاكوب زوما منذ 2009.

الرموز القومية: البروتيا (من أنواع الزهور في جنوب أفريقيا) والقوفز (من أنواع الظبيان).

الاقتصاد: المصدر الأول للذهب والبلاتين في العالم.

النمو: 5% سنويًا.

البطالة: 40% بين السود، و3% بين البيض.

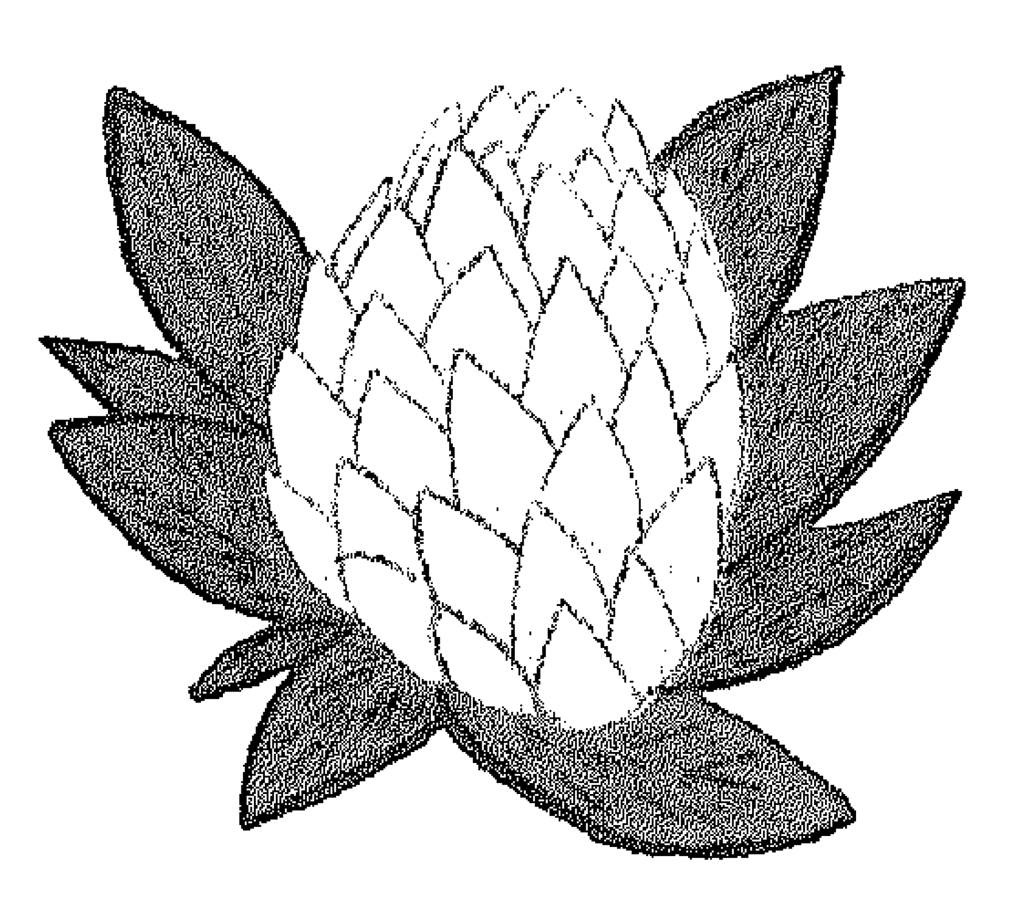




يعيش اليوم حوالي نصف سكان جنوب أفريقيا بأقل من دولارين يوميًا.

ارتفاع مفزع في معدلات الجريمة:

تُعد جنوب أفريقيا من البلاد الأكثر خطورة في العالم. ففي 2005، بلغ عدد ضحايا حوادث القتل 000 19 شخص، و000 55 حالة اغتصاب، و000 120 عملية سطو مسلح، و000 300 سرقة. وفي المدن الكبرى، أصبحت بعض الأحياء غاية في الخطورة لدرجة أصبح من المستحيل معها أن يقترب منها أحد. ولجأ الأغنياء من البيض أو السود إلى العيش في أحياء سكنية تحولت إلى قلاع بفضل شركات أمن متخصصة يلجأ إليها رجال الشرطة عند عجزهم في بعض الأحيان.



وليلًا، لا يُنصح بالتجول على الأقدام أو استخدام شبكة الطرق!

وباء الإيدز:

تحتل جنوب أفريقيا المرتبة الثانية بعد الهند في العالم من حيث عدد المصابين بمرض الإيدز. ومن بين سكان جنوب أفريقيا البالغ عددهم اليوم 47 مليونًا، حوالي 12% يحملون الڤيروس. ويموت يوميًا ألف شخص من مرض الإيدز، وتمتد العدوى إلى 500 1 آخرين. ولم تقم الحكومة باتخاذ أية إجراءات مضادة سوى في وقت متأخر. فلم تصل بعض العقاقير المضادة للڤيروسات إلى بعض المناطق سوى منذ أربع سنوات أو خمس على الأكثر! غير أن السلطات قد اعترفت بإدراكها لخطورة تلك المصيبة خلال المؤتمر الوطني الثالث لمكافحة الإيدز الذي انعقد في دوربان في يونيو2007. ووعدت الحكومة بتوفير كَمٍّ أكبر من العقاقير، وزيادة اختبارات الفحص، وبذل مجهودات أكبر للعناية بالمرضى واليتامى.

فنانون التمييز

في كل صراع، لا تكون الأشياء دائمًا مطلقة البياض أو السواد، فقد كان هناك أشخاص بيض ساندوا قضية السود أثناء نظام التمييز العنصري، ومن بينهم عدد من الفنانين والكُتَّاب والموسيقيين.

أندريه برينك

«في كل مرة أردت فيها أن أخطو خطوة إلى الأمام، كنت أضطر لمواجهة ليس فقط جهاز التمييز العنصري وتشعباته الخانقة، ولكن أيضًا قُوًى خفية تقف في الظلام ضد الكاتب. هذه القوى التي يبدو أن العديد من الأفريكان يحاولون تجاهلها لأنهم لا يتقبلون أن ينحدر شعبهم إلى هذا المستوى من التصرفات».

مقتطف من «على مقعد لوكسمبورج»، 1983، دار نشر ستوك.

وُلد أندريه برينك في 1935، في مدينة ڤريد لعائلة تنحدر من أصول دانماركية وهولندية. وترعرع في محيط أفريكاني تقليدي. وبدأ في 1959، في إعادة النظر في الحقائق والمعتقدات المحيطة به، عندما رحل إلى باريس لاستكمال دراسته. وهناك تعرَّف إلى طلبة



أندريه برينك

سود وأدرك سخافة التمييز العنصري. وعند عودته بدأ ينتقد النظام العنصري علنًا في كتاباته. وفي 1974، تم حظر روايته «في ظلام الليل» في جنوب أفريقيا. ولم يبالِ، بل قام بترجمة الرواية إلى الإنجليزية ونشرها في الخارج. وفي 1979، نشر أندريه برينك رواية «فصل أبيض وجاف»، الذي يدور حول صراع أستاذ أبيض لإنقاذ ذاكرة رجل أسود اختفى داخل أقسام الشرطة. وهكذا، يكتشف هذا الرجل حقيقة نظام التمييز العنصري الذي يتحاشى البيض أنفسهم طرح أسئلة حوله. وتم حظر رواية «فصل أبيض وجاف»، التي استحق عنها الكاتب جائزة ميديسيس للأدب، من فرنسا في 1980.

نادين جوردايمر

«... لا يوجد كُتاب بيض لم يتأثروا بحياة السود وأفكارهم... وبالرغم من التمييز العنصري والظروف العصيبة التي نجمت عنها، فقد نشأ بين كل من البيض والسود استيعاب متبادل لثقافاتهم المختلفة، مما أدى إلى ظهور نوع من الثقافة المشتركة».

مقتطف من حوار مع إيطالا ڤيڤان في مجلة ألفابيتا، العدد رقم 95، أبريل 1987.

وُلدت الكاتبة نادين جوردايمر في مدينة سبرينجز في 1923. وكانت تكتب باللغة الإنجليزية. وحصلت على جائزة نوبل للآداب. وفي كل روايات أو

بيض ضد العنصري


نادين جوردايمر

مجموعات الكاتبة القصصية، كانت تلجأ إلى شخصيات وهمية، سواء بيض أو سود أو ملوَّنون، يكونون بصورة أو بأخرى على خلاف مع نظام التمييز العنصري، ويقعون دائمًا في موقف يتحتم عليهم فيه القيام بخيارات سياسية صعبة. وتصورت الكاتبة، قبل رجال السياسية، سيناريو الوضع بعد رحيل نظام التمييز العنصري. ولا تزال نادين جوردايمر أحد الرموز الأخلاقية في بلادها دون أن تقوم بدور الواعظة.

چوني كليج

أسيمبو نانجا|(لم نَرَهُ)|أسيمبو نانجا أُو مانديلا ثِينا|(لم نَرَ مانديلا) |الاپ إيكونا |(في المكان الذي سُجن فيه)...

كلمات أغنية أسيمبو نانجا، للمغنيَيْن چوني كليج وسافو كا في 1987.

وُلد الكاتب والمغني والملحن چوني كليج في 1953، في المملكة المتحدة، ولكنه ترعرع في جنوب أفريقيا. وبالرغم من أن عائلته قد عزلته عن أي ثقافة سوداء، إلا أنه قد تعرف على موسيقى الزولو وهو في فترة المراهقة. وقام بتكوين فرقته الموسيقية الأولى في 1970، والتي كانت تخلط ما بين الكلمات الإنجليزية وألحان الرُّوك وموسيقى الزولو. ووصل كليج إلى العالمية عن طريق ألبومه الغنائي: «طفل العالم الثالث» الذي سجل فيه أغنية «أسيمبو نانجا» التي ألفها بالإنجليزية والزولو وأهداها لمانديلا. ومُنعت هذه الأغنية من التداول في جنوب أفريقيا في حين إنها أصبحت رمزًا عالميًا لمناهضة العنصرية.

ومن خلال ألبوم: «حياة واحدة» الذي طرحه كليج في 2006، قام «الزولو الأبيض» كما كان يطلق عليه، بمواصلة نضاله السياسي وعلى الأخص من خلال أغنية حول الأطفال المجندين.


چوني كليج

جنوب أفريقيا: المصالحة

في أعقاب إلغاء التمييز العنصري، مضت جنوب أفريقيا في طريق التصالح والتسوية فيما بين مختلف الأجناس الموجودة على أراضيها. وهناك عدد من الرموز التي تشير إلى تلك السنين «السوداء».

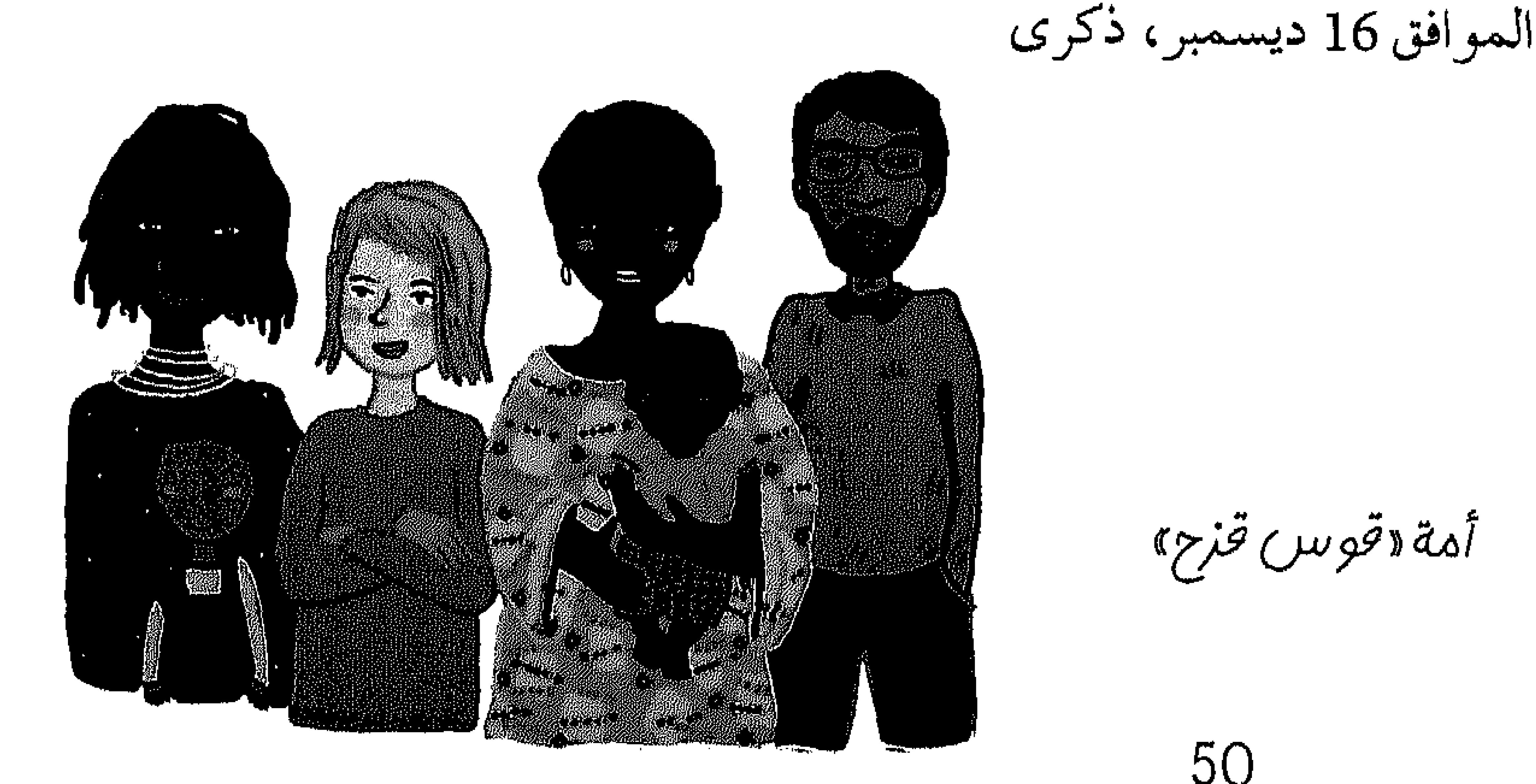
شعب «قوس قُزَح» مجتمعًا

بعد إلغاء التمييز العنصري، اختار قادة جنوب أفريقيا مجتمعًا يتعايش فيه الكل من البيض والسود والملونين والهنود بسلام. وكان أول رمز اختير لتمثيل تلك الأمة هو «قوس قُزَح» الذي ظهر على عَلَم جنوب أفريقيا بداية من 1994. ويجمع الألوان الستة التي ترمز إلى مختلف الاتجاهات السياسية في البلاد، وتلك التي غلبت على الأعلام السابقة. فاستخدم الأسود والأخضر والأصفر لأنها ألوان المؤتمر الوطني الأفريقي. وكذلك الأزرق والأبيض والأحمر لأنها كانت موجودة على علم الجمهورية السابقة. وأُضِيفَ الرمز الذي يشبه حرف «Y» في إشارة للاتحاد والتقارب والاتجاه إلى الأمام.

وكُتب النشيد الوطني بأربع لغات هي: الزوزا والسيزوتو والأفريكانز والإنجليزية، وجمع بين أغنيتيْن: الأولى هي «نداء جنوب أفريقيا» الذي كان النشيد الوطني للبيض، والثانية «فليبارك الرب أفريقيا» وهي نشيد يرمز إلى مقاومة العنصرية، وكان يغنيه معارضو النظام السابق. وامتد السعي إلى المجتمع إلى أيام العطلات التي اختيرت بناء على رغبة في إقامة جنوب أفريقيا ذات وعي جديد متحرر من الماضي. وهكذا أصبح «يوم الأماني» الموافق 16 ديسمبر، ذكرى مذبحة الزولو على يد البوير في 16 ديسمبر 1838، هو «يوم التصالح». أما «يوم السويتو» الموافق 16 يونيو، والذي كان يرمز إلى انتفاضة الطلاب ضد العنصرية عام 1976، فأصبح «يوم الشباب».

سارتجي بارتمان: دفن العنصرية رمزيًا

إنه من الضروري لكي تتعايش الشعوب كأمة واحدة، أن يقوموا بتأليف قصة مشتركة رمزية تجمعهم معًا.



أمة «قوس قزح»

رموز

أزرق وأبيض وأحمر: رموز الجمهورية السابقة

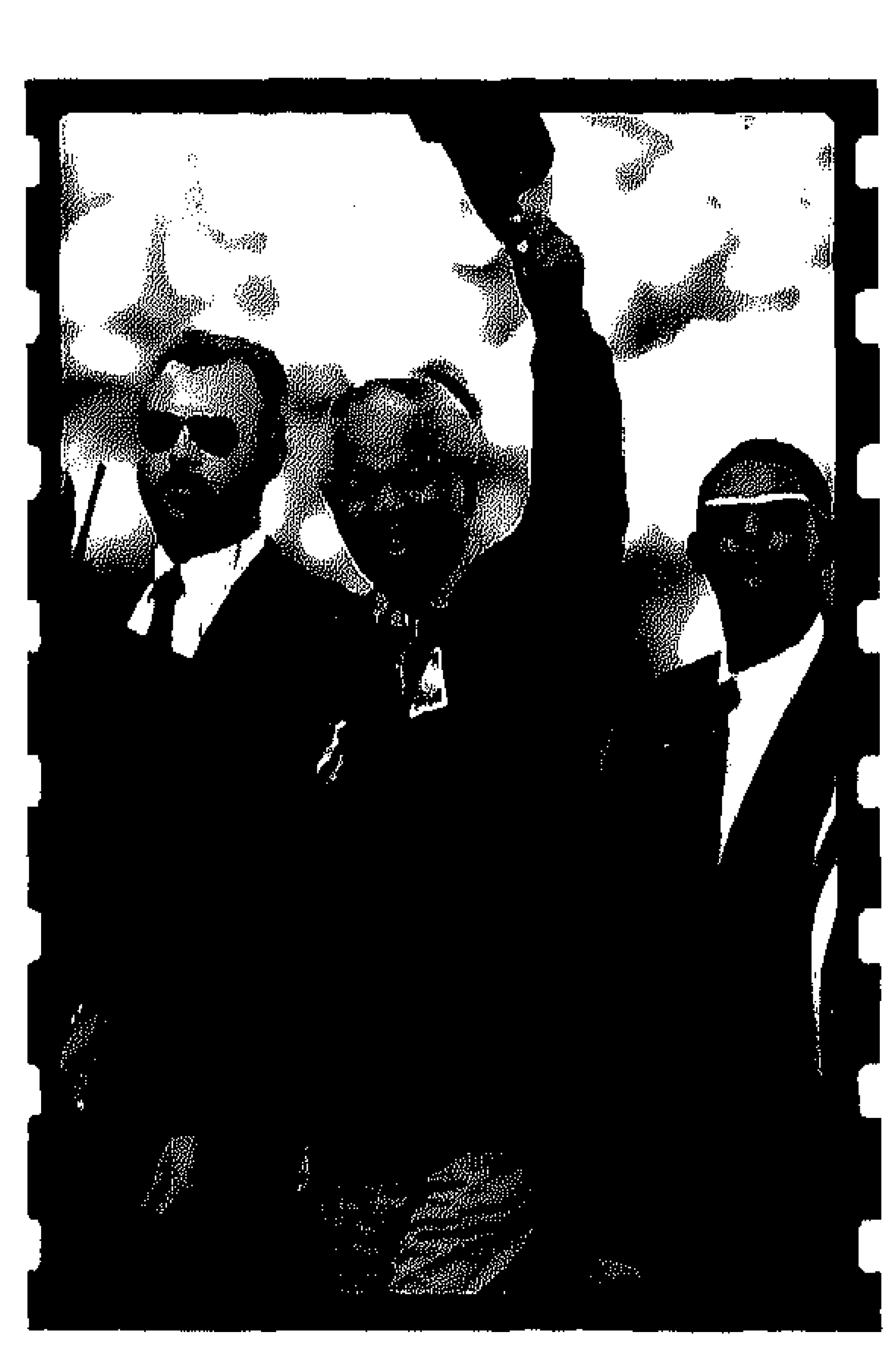
أخضر وأصفر وأسود: ألوان المؤتمر القومي الأفريقي

حرف الـ Y: رمز الاتحاد والتقارب والاتجاه إلى الأمام

واستطاعت شعوب جنوب أفريقيا أن تخلق تلك القصة المشتركة من خلال مراسم دفن سارتجي بارتمان، في 9 أغسطس 2002. وكانت سارتجي بارتمان فتاة من شعب الكوي وهي مصابة بنوع من التشوه الخِلْقي. وعندما بلغت الحادية والعشرين في 1810، أقنعها طبيب من الأسطول البريطاني بأنها يمكن أن تُكَوِّن ثروة كبيرة في أوروبا إذا ما عرضت جسدها هناك. وقامت الفتاة بالفعل بعرض جسدها لمدة أربع سنوات في السيرك والمتاحف والجامعات. وتُوفِّيت بارتمان في 1815، في باريس، وهي في حالة من البؤس الشديد. وحتى هيكلها العظمي لم يَنْجُ من العرض في قاعة بمتحف الإنسان بباريس! وقامت فرنسا بردِّ رفات بارتمان إلى جنوب أفريقيا في 2002. وحصلت مراسم دفن بارتمان على تغطية إعلامية واسعة، هذا لأن النظام الجديد قد حرص على جمع كل فئات المجتمع لتقوم معًا بدفن الاستيطان والعنصرية والتفرقة الجنسية بصورة رمزية في جنوب أفريقيا الجديدة القائمة على تعدد الأجناس. وأُعلن بعدها قبر بارتمان مَعْلَمًا أثريًا قوميًا.

لعبة الركبي: أكثر من رياضة قومية

يتمتع فريق جنوب أفريقيا للركبي: فريق السبرينجبوكس، بسمعة عالمية. وهو من أقدم فرق الركبي في العالم. وأثبت مكانته مرة جديدة عندما هزم الفريق البريطاني في نهائيات كأس العالم الذي أقيم في فرنسا في 2007. ويتمتع لاعبو جنوب أفريقيا بمستوًى عالٍ من الأداء؛ غير أن الفريق كان ممنوعًا من المشاركة في المباريات الدولية بسبب تطبيق نظام التمييز العنصري في البلاد. ولم يُسمح بمشاركة فريق جنوب أفريقيا في كأس العالم سوى بعد انتخاب مانديلا رئيسًا للحكومة في 1995. وفي ذلك العام، استولت جنوب أفريقيا – وهي كانت الدولة المنظمة– على الكأس بفضل فريقها المختلط. وكان ذلك يوم مشهودًا في تاريخ جنوب أفريقيا، حيث قام الرئيس الجديد مانديلا بتسليم الكأس بنفسه لأفراد الفريق.



في 1995، في نهائيات كأس العالم للعبة الركبي، يحتفل مانديلا بفوز السبرينجبوكس ويرتدي قميص كابتن الفريق.

«إذا سمحنا لنورنا الداخلي
بالتوهج، فإننا بذلك
نعطي الفرصة للآخرين
ليفعلوا مثلنا.»

«إننا لم نصل بعد إلى الحرية، بل وصلنا بالكاد إلى حرية أن نكون أحرارًا.»

«إن الحرية ليست في تخلص الإنسان من قيوده فحسب، بل في العيش بأسلوب يحترم ويدعم حرية الآخرين.»

«فَلْتَحيِ الحرية،
لأن الشمس لم تَغِبْ أبدًا
عن إنجاز إنساني أكثر
عظمة منها.»

الحرية

«لم يُعانِ أحد سواي تلك السنوات الضائعة الطويلة من الوحدة. وحبي للحياة لا يقِّل شيئًا عن حبكم لها. ولكني لا أستطيع أن أبيع حق ميلادي ولست على استعداد لبيع حقوق ميلاد الشعب لكي أعيش حرًا. (...)

وحده الرجل الحر، يستطيع التفاوض.

ولا يستطيع المسجون أن يُبْرم عقدًا.

لا فرق بين حرية الشعب وحريتي. سأعود.»

من خطاب مانديلا إلى الحكومة
الذي قرأته ابنته زيندزي في سويتو في فبراير 1985.

«لكي تحقق
السلام مع عدو،
يجب أن تعمل
مع هذا العدو،
ويصبح هذا العدو
شريكاً لك.»

«لقد كرست
كل حياتي لنضال
الشعب الأفريقي.
ولقد قاومت
التسلط الأبيض
وكذلك التسلط الأسود،
لأن حلمي الأكبر
هو قيام مجتمع حر
ديمقراطي
يتعايش فيه الجميع
ويحصلون على
فرص متساوية.
إني آمل أن يمتد بي العمر
حتى أبلغ هذا الحلم.
وإني على استعداد
للتضحية بحياتي
إذا تطلب الأمر ذلك.»

محاكمة ريفونيا

النض

«حتى في الصغر، تعلمت الانتصار على
المنافسين دون المساس بكرامتهم.»

«ليس لدى رجال الشرف ورجال القناعة ورجال الضمير
والأخلاق سوى خيار واحد: اتباع ضميرهم دون المبالاة
بالعواقب.»

«لقد اكتشفت
سرًا: عند تسلق تل، كل ما
يكتشفه المرء أنه لايزال
أمامه الكثير من التلال
الأخرى للتسلق.»

مقتطف من كتاب «طريق طويل للوصول إلى الحرية»

«يأتي وقت
في حياة أمة،
لا يكون متاحًا لديها
فيه سوى خيارين:
الاستسلام
أو النضال.
ولقد جاء اليوم
هذا الوقت
في جنوب أفريقيا.
لن نستسلم
وليس لدينا خيار
آخر سوى الرد
بكل الوسائل المتاحة
لنا للدفاع عن
شعبنا ومستقبلنا
وحريتنا.»

بيان أمكونتو وي سيزوي

ـال

«يجب القضاء بوعي على العنصرية،
وعدم تقبُّلها بصمت.»

العنصرية

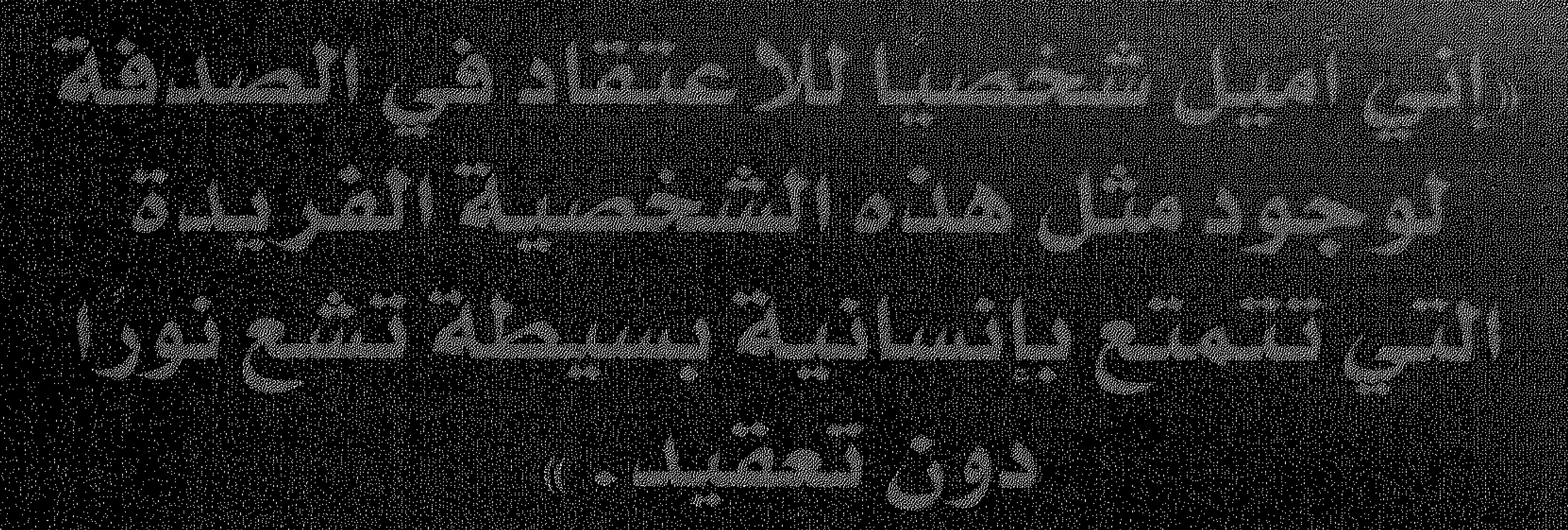
«لماذا عليَّ في هذه المحكمة، أن أمتثل أمام قاضٍ أبيض،
وأن أواجه مدَّعيًا عامًّا أبيض، وأن يرافقني حارس أبيض؟
لا يمكن الزعم، بكل أمانة وجدية،
أن في ظل هذه الظروف يمكن ضمان حيادية القضاء. إني
رجل أسود في محكمة رجل أبيض.
هذا الأمر لا يصح.»

«إني أكره بشدة التفرقة العنصرية بكل أشكالها.
لقد حاربتها طوال حياتي، وأحاربها الآن، وسأظل أحاربها
حتى نهاية عمري.»

«يجب تكوين مجتمع جديد
تفخر به الإنسانية جمعاء.
لقد توصلنا أخيرًا إلى حريتنا السياسية،
ونحن ملتزمون بتحرير إخوتنا من معاناتهم
المستمرة من الفقر والحرمان والألم،
وكل أشكال التمييز الأخرى. لن يعرف هذا
الوطن الجميل، أبدًا، أبدًا، أبدًا، مرة أخرى
اضطهاد فريق من الناس لفريق آخر...»

الأمل

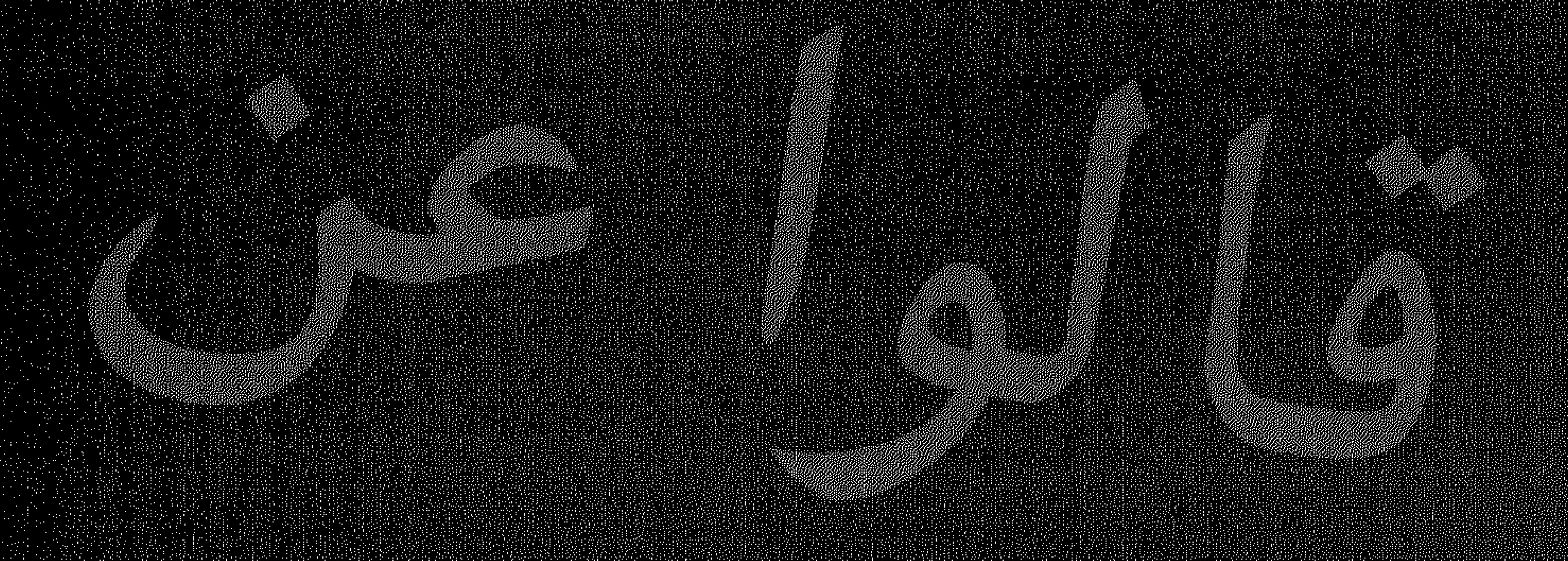
«كل البشر حتى الذين يوحي ظاهرهم
بأنهم أبعد ما يكونون عن الشفقة، بداخلهم
دائمًا جانب طيب؛ إذا استطعنا لمس قلوبهم،
أمكننا تغييرهم.»



وولي سوينكا، كاتب نيجيري، ولد في 1934. وهو أول كاتب أفريقي
يحصل على جائزة نوبل للآداب في 1986.

عندما خرج مانديلا من السجن،
قلنا: «ها هو لحم ودم الرمز الذي أخفوه
عنا طوال سبعٍ وعشرين سنة».

چوني كليج في كتابه: «الإنسانية»، في 1990.



إن الجائزة الرفيعة التي تجمعكما معًا
هي بمثابة احتفاءٍ بجهودكما المشتركة لقيادة بلادكما
نحو الحرية والكرامة والديمقراطية. (...)
إن هذه الجائزة تكرم رجلين لهما قناعة قوية،
أرادا أن يقهرا سلطان الأهواء الشخصية والعنف
ليحققا المصلحة المشتركة لشعبهما...

فرانسوا ميتران عند إعلان فوز نيلسون مانديلا وفريدريك دي كليرك
بجائزة نوبل للسلام.

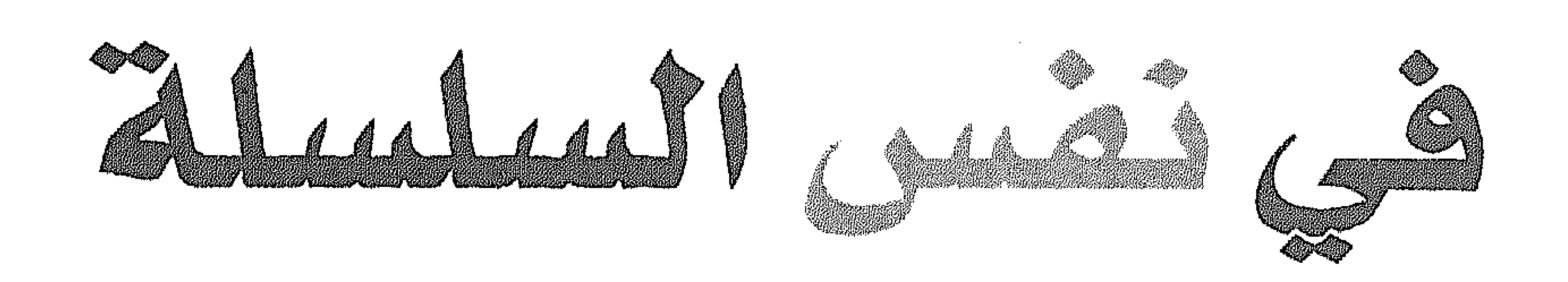
«يمثل (مانديلا) بالنسبة للكثيرين منا
وكذلك حول العالم رمز الحكمة
والتصميم والمستقبل.»

جاك شيراك خلال زيارة قام بها إلى جنوب أفريقيا في 2 سبتمبر 2002.



«رجل عجوز يغادر السجن.
لقد دخل السجن وهو مناضل وها هو يخرج منه
وهو أسطورة. (...) وتضيء الآفاق، فهو يأتي بالأمل
بالرغم من أنه لم يعرف العالم،
ولا حتى اللمسة الحانية للأيام الخالية تحت السحب
المارة. وإن كان قد حدث ذلك له في يوم من الأيام،
فهو لا يتذكره. لعل رحلتنا الشاقة على الأرض
الآن صار لها معنى أكبر...
فبنجاحه. وفشله. وحياته. وموته.
نيلسون مانديلا يفتح بابًا.»

بريتن بريتنباخ، كاتب من جنوب أفريقيا



غاندي

تعليقات صور إضافية:

ص. 4–5: مانديلا أثناء حملة انتخابه الرئاسية، 15 مارس 1994.

ص. 8: مانديلا في 1961، يلقي خطبة أمام المؤتمر الوطني الأفريقي.

ص. 10–11: 11 فبراير 1994، يعود مانديلا إلى سجن روبن آيلاند حيث قضى أكثر من 25 عامًا.

ص. 18–19: مانديلا يحتفل بفوزه، في جوهانسبرج، في 2 مايو 1994.

ص. 44–45: مانديلا يلقي استقبالًا حافلًا في 27 مارس 1994، عند ذهابه للتصويت في الانتخابات لأول مرة في حياته.

ص. 52–53: مانديلا في اجتماع للمؤتمر الوطني الأفريقي، في أغسطس 1994.

صور أرشيفية:
نيكول بورشرو



حياته
معاركه
أقواله

شخصيات مؤثرة مجموعة أدبية هدفها تقديم الشخصيات الروحانية العظيمة في العصر الحديث. هؤلاء الرجال والسيدات الذين جعلوا من التزامهم بخدمة الإنسانية نضالًا لاحترام الحرية واحترام الآخرين. هؤلاء الرجال والسيدات الذين كانت لديهم الشجاعة الكافية للإيمان بمستقبل أفضل بالرغم من الظلم والاضطهاد الذي تعرضوا له. هذا المستقبل الذي سرعان ما استوجب عليهم تشكيل ملامحه.

«رجل واحد، صوت واحد» تلك عقيدة نيلسون مانديلا الرجل الذي قاد جنوب أفريقيا إلى الديمقراطية وطوى صفحة التمييز العنصري.

كم هي عديدة الطرق التي سلكها هذا الشاب الذي كان يرعى الغنم في بلدته بإقليم ترانسكاي! وكان التزامه بدون تنازل بمحاربة نظام التفرقة المنتشرة في البلاد، هو السبب في دخوله السجن حيث قضى سبعة وعشرين عامًا. وعندما خرج من الس... 1991 ف... قد أصبح رمزًا عالميًا للنضال من أجل ال... هي القصة المثيرة لرجل استطاع ... الهادئ أن يترك أثرًا في بلاده وفي ال...





www.al-balsam.com

